بدايات ونهايات

قصص قصيرة

د. خالد توفيق

هلا للنشر والتوزيع

بدايات ونـهايات

(قصص قصيرة)

للدكتور

خالد محمود توفيق

مدرس الترجمة وعلم اللغه

بقسم اللغة الإنجليزية – كلية الآداب

جامعة القاهرة

هلا للنشر و التوزيع

بطاقة فهرسة
توفيق،خالد
بدايات و نهايات:قصص قصيرة/خالد توفيق.-الجيزة:
هلا للنشر و التوزيع،٢٠٠٧
٩٥ص:١٤.
تدمك ٨ ٢٩٤ ٣٥٦ ٩٧٧
١-القصص القصيرة
أ-العنوان ٨١٣,٠١

اسم الكتاب:بدايات و نهايات
تأليف:د.خالد محمود توفيق
الناشر:هلا للنشر و التوزيع
٦شارع الدكتور حجازى-الصحفيين-الجيزة
تليفون:٣٣٠٤١٤٢١ فاكس:٣٤٤٩١٣٩
البريد الإلكترونى:www.halapublishing.net
hala@halapublishing.net
رقم الإيداع:٢٠٠٧/١٧٠٢٣
الترقيم الدولي:977-356-294-8
الطبعة الأولى
٢٠٠٧م-١٤٢٨ه

إهـــــداء

إلى زملائى وأساتذتى فى المدرسة الـــسعيدية الثانوية، ذلك المكان الذى قضيت فيه أجمــل ثلاث سنوات فى عمرى (١٩٨٧ – ١٩٩٠).

إلى كل حائط ، وذرة رمال ، وحجرة دراسة فى هذا المكان الذى يحتل مكانة كبيــرة فــى قلبى.

خالد توفيق

٢٠٠٧/٧/١٠

مقــدمـــــة

هذه هى مجموعتى القصصية الأولى= واعتقد أنها الأخيرة – وقد اختــرت لها عنوانًا وهو "بدايات ونهايات"؛ لأن كل شيء فى هذا الكون يخضع لقانون البداية والنهاية، فلكل شيء بداية ثم شباب ثم نهاية، وحتى الكون نفسه له بداية ونهاية.

وقد يرى بعض القراء أن فكرة الموت تسيطر على الكثير من قصص هــذه المجموعة، وهو اعتقاد سليم، لأننى اعتقد أن الموت هو الحقيقة الوحيدة التى يعلمها كل إنسان، ومع ذلك يتعمد أن ينسى هذه الحقيقة، وحتى إذا تذكرها قــد يهولهــا أو يستخف بها، والقليل منا هو الذى أدرك حقيقة الموت وفلسفته، إن كان له فلسفة.

ويجب علىّ أن أقول إن بعض أفكار هذه القصص اســتقيتها مــن قــراءة الصحف اليوميةمثل "حب فى الجولان"، و"٠٩٠٠"، "والكنز".

وتحمل كل قصة من هذه القصص بعدًا انسانيًا ليس الغرض من كتابته متعة القراءة فقط،ولكن الغرض الأساسى هو التوقف،والنظر،والتأمل،وربما التغيير.

خالد توفيق

القاهرة

٢٠٠٧/٧/١٠

انتحار مواطن عربى

جاءت كلمات الطبيب حادة ومباشرة هذه المرة، ووجه كلامه لزوجة الأستاذ أمين منكرًا إياها بأنه حذرهم من قبل أنهم يجب أن يمنعوه من قراءة الصحف اليومية أو مشاهدة نشرات الأخبار. ردت زوجة الأستاذ أمين تدافع عن نفسها بأنها حاولت مرارًا، ولكنه كان يتسلل فى منتصف الليل ليشاهد نشرات الأخبار، أو يفتح جهاز الحاسب الآلى الخاص بابنه جمال؛ ليتصفح المواقع الإخبارية المختلفة.

كرر الطبيب تحذيره مرة أخرى مؤكدًا على أن نوبة الاكتئاب القادمة قد تقضى على حياته. كان لهذه الكلمات تأثيرٌ مزلزلٌ على زوجة الأستاذ أمين، وأخذت بيد زوجها الذى كان ينظر فى الفراغ، وهمت بالخروج من حجرة الطبيب، الذى كرر تحذيره مرة أخرى، وهى تفتح باب الغرفة فى طريقها إلى الخارج.

استقلا تاكسى من ميدان روكسى إلى بيتهما فى شارع الهرم، وجعل الأستاذ أمين طول المسافة يستغرق فى تفكير عميق، ويغرق فى الذكريات. فقد ولد الأستاذ أمين فى عام ١٩٥٢ وهو عام ثورة يوليو التى قضت على الملكية والنظام الإقطاعى فى مصر. كان أبوه الأستاذ عبدالدايم من أوائل من أيد الثورة؛ لأنه رأى فيها الخلاص من الظلم الطبقى الذى كان يسود مصر فيما كان قبل الثورة.

زرع الأستاذ عبدالدايم الشعور الوطنى فى أولاده وخاصة ابنه الأكبر أمين، والذى كان يداعبه دائمًا بلقب "ابن الثورة" لولادته فى عام الثورة. كبر أمين على هذا الحب الجارف، وتحول الشعور الوطنى داخله إلى حساسية مفرطة؛ وهذا يفسر إصابته بحالة حادة من الاكتئاب ورفضه للذهاب للمدرسة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧. ودار تشخيص الأطباء النفسيين وقتئذ حول كلمة "نوبة حادة" من الاكتئاب.

وتكررت هذه النوبات مع الأستاذ أمين كثيرًا كلما تعرضت مصر أو الأمة العربية إلى أى محنة. كان بعض هذه النوبات حاد، وخاصة تلك التى ارتبطت بالغزو الإسرائيلى لجنوب لبنان عام ١٩٨٢ وغزو العراق للكويت عام ١٩٩٠، وتدمير جيش العراق فى حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١، وكانت أكثر النوبات حدة تلك التى صاحبت الغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣.

وتزامنت نوبات الاكتئاب المعتدلة والخفيفة مع الخلافات العربية الكلاسيكية المعتادة مثل الخلافات بين مصر وليبيا، ومصر والسودان، والسعودية وليبيا، ودول الخليج واليمن، والأردن وقطر، وقطر والبحرين، والمغرب والجزائر، و ... و... و... وأصبحت نوبات اكتئاب الأستاذ أمين كأنها سجلاً تاريخيًا لتاريخ النكسات والخلافات العربية.

وكانت تصيب الأستاذ أمين بعض نوبات الاكتئاب الداخلى، بمعنى نوبات الاكتئاب التى تصيبه نتيجة لما يحدث داخل مصر مثل احتراق قطار الصعيد وغرق العبارة السلام، وأنفلوانزا الطيور، وقضية أطفال الشوارع، وقضية أكياس الدم الفاسدة، و... و... و...

ولكن عام ٢٠٠٦ بالذات كان أكثر مما يحتمل الأستاذ أمين. فقد اشتعلت الحرب الأهلية فى العراق بين السنة والشيعة، وانقسمت القوى الداخلية فى لبنان مما يهدد باندلاع حرب أهلية.

ولكن يجب أن نذكر أن عام ٢٠٠٦ قد حمل بعض الابتسامات للأستاذ أمين تمثلت فى انتصار حزب الله على إسرائيل فى حرب الـ ٣٤ يومًا، ولكن هذه الابتسامات ضاعت إلى الأبد فى ذلك اليوم الذى قرأ الأستاذ أمين فى الصحف عنوانًا يقول "اشتداد القتال بين حماس وفتح وإسرائيل تطالب الطرفين بضبط النفس"، وهو نفس اليوم الذى قررت فيه زوجته أن تأخذه لطبيبه النفسي؛ ليرى ما

حل به لأنها ترى أن نوبة الاكتئاب هذه المرة غير مسبوقة فى حدتها. وهــو نفــس اليوم الذى قرر الأستاذ أمين فيه الانتحار.

كانت مدة المسافة بين روكسى إلى الهرم – والتى تقارب الساعة – كافيــة لتختمر فكرة الانتحار، وأسلوبه، ونتيجته فى رأس الأستاذ أمين.

وصل الأستاذ أمين إلى منزله فى ساعة متأخرة، وانتظر حتى نام الجميــع، وبدأ فى كتابة رسالة شرح فيها أسباب انتحاره، وأنه قد يأس من مستقبل هذه الأمة، وكتب فى رسالته أيضًا أنه يتمنى أن يتصدر خبــر انتحــاره "القــومى" مانــشيتات الصحف ليكون جرس الإنذار لكل عربي وطني من الحالة التى وصلنا إليها، وقــام الأستاذ أمين بإرسال هذه الرسالة فى شكل رسالة إليكترونية من كمبيوتر ابنه جمال إلى مواقع كل الصحف العربية وعلى مواقع الأحزاب العربية، ومنظمات المجتمــع المدنى، و.......

استيقظت أسرة الأستاذ أمين لتجد جسده وقد تدلى من حبل علقه فى ســقف صالة الشقة. وقد صدرت الصحف بعد وفاته بأيام، وكانت أهم ثلاثــة أخبــار فــى صدر الصفحات الأولى هى : "صراع جديد بين الأهلى والزمالــك لــضم لاعــب أفريقى" ، "مسابقة للرقص الشرقى فى شرم الشيخ" ، وكان آخــر هــذه الأخبــار، وأهمها على الإطلاق هو "أغنية بحبك يا حمار تحقق أعلى المبيعات" !!!

جواز سفر

قرر مروان أن يقضى إجازة هذا الصيف فى قريته بالقرب من نهر الليطانى فى جنوب لبنان، بعد عشر سنوات قضاها فى كندا، حيث بدأ من الصفر، إلى أن فتح الله عليه، ورزقه وأصبح يملك محلاً صغيرًا فى مونتريال. وكان مروان يدرك تمامًا أن جزءًا كبيرًا من هذا النجاح يعود إلى زوجته وابنة عمه ريما، التى وقفت بجانبه تسانده، ورزقه الله منها بولديه حسن وفضل.

كان الإحساس بالحنين للوطن بصفة عامة، وقريته الصغيرة بصفة خاصة يعصره كل يوم. وكانت ذكرياته وهو طفل صغير يجرى فى ربوع الوديان الخضراء التى تحيط بقريته الصغيرة تهاجمه كل ليلة، وخاصة حينما يخلد إلى النوم، حيث يستكين كل شيء من حوله ويعلو صوت الذكريات.

قرر مروان وضع حد لكل هذا، والسفر لجنوب لبنان ليقضى شهرًا كاملاً بين والديه، وأخوته، وأحبائه، وجيرانه. استقل مروان وأسرته الصغيرة الطائرة من مطار مونتريال إلى بيروت، والسعادة تغمرهم جميعًا، ويكاد شوقهم يصل إلى بيروت قبل أن تصل إليها أجسادهم.

حطت الطائرة فى مطار بيروت، وخرج مروان وأسرته يبحثون عن سيارة يستأجرونها للذهاب لقريته التى تبعد مسافة تزيد عن ساعتين عن العاصمة بيروت. ونجح مروان فى استئجار سيارة، وبدأت رحلتهم إلى الجنوب. وكانت عيونهم تنظر فى كل مكان على جانبى الطريق، وكأنها تريد أن تحتوى كل تفاصيل المناظر الطبيعية الخلابة على طول الطريق.

وبعد ساعة من الرحلة، سمع الجميع دويًا هائلاً، وصاح السائق بصوت عال "عملوها الكلاب"، واستفسر مروان – الذى بدت عليه وعلى أسرته علامات الرعب – من السائق عما يقصد. رد السائق بأن اليهود قد بدءوا حربهم على لبنان؛

ردًا على أسر حزب الله لجنديين من جنود الجيش الإسرائيلى. وتذكر مروان أنه قد قرأ هذا فى إحدى الصحف.

بدأت القذائف تسقط عليهم من كل جانب وكأنها أمطار غـضب. وحـاول السائق بمهارته أن يتفادى أن تصاب السيارة بإحدى هذه القذائف. وسقطت إحـدى القذائف على الطريق أمامهم فقطعت الطريق. فنزلوا جميعًا من الـسيارة يجـرون ويبحثون عن مكان يختبئون فيه حتى تهدأ الأمور. وأخيرًا وجدوا مكان يشبه الكهف فاختبئوا فيه حتى جاء الليل وهدأت الأمور.

وبدءوا يسمعون أصوات أناس كثيرين، فخرجوا من مخبئهم ليجدوا الكثيـر من سكان الجنوب الذين هجروا مساكنهم؛ لينجوا بأسرهم فمشوا معهم.

ثم بدأت الطائرات تغير عليهم مرةً أخرى، وثالثة، ورابعة ... وهم يختبئون من مكان إلى آخر. وبدأ الطريق يمتلئ بالجثث. ثم وجدوا بعـض جنـود الجـيش اللبنانى يجمعون الناس فى المدارس، فذهبوا لإحدى هذه المدارس، وكانوا قد فقـدوا أمتعتهم، إلا جوازات سفرهم الكندية التى كان مروان يضعها فى جيوب بذلته.

وتحولت زيارة الأهل إلى كابوس لا ينتهى، وبدا الحزن والهلع على وجـوه الولدين اللذين كان يمنيان نفسيهما برؤية أرض أجدادهما، التى طالما حدثهم والدهم عنها؛ حتى لا ينقطع الود بين الولدين وبين وطنهم الأصلى.

وكان مروان دائمًا يصر أن يتحدث الولدان باللغة العربية، وكان يصر أكثر وأكثر أن يحفظ ولديه القرآن الكريم فى المركز الإسلامى بمونتريال؛ حتى لا ينسى الولدان دينهما ولغتهما العربية.

وبعد مرور يومين فى هذه المدرسة، بدأت تصل مجموعة من الأتوبيـسات الضخمة لنقل الأجانب الذين يسكنون فى الجنوب إلـى العاصـمة بيـروت، حتـى

تتسلمهم سفاراتهم؛ لترتب لهم كيفية الخروج من لبنان عن طريق سوريا بعد تـدمير أجزاء كبيرة من مطار بيروت الدولى وتعذر حركة الطيران.

وبدأ الناس جميعًا يجرون نحو الأتوبيسات، سواء كانوا أجانب أو لبنـانيين، وكل منهم يمنى نفسه بالفوز بمكان فى أحد هذه الأتوبيسـات للهـرب مـن آتـون الحرب.

وبدأ جنود الجيش فى إبعاد الناس عن الأتوبيسات بكل قوة، بعد أن فـشلوا فى أن يفهم الناس أن هذه الأتوبيسات لنقل الأجانب فقـط. وقـد حـاول مـروان الحصول على أماكن له ولأسرته، إلا أن أحد الضباط ضربه بمؤخرة البندقية فـى وجهه، مُحذّرًا إياه من الاقتراب من الأتوبيسات مرة أخرى.

وقع مروان على الأرض وسالت الدماء من وجهه، والتفت حولـه زوجتـه وولديه يضمدون جراحه.وفجأة تذكر مروان جوازات سفرهم الكندية، وسرعان مـا أخرجها من جيوب بذلته، وجرى بها نحو الضابط مرة أخرى، والذى كان قد استعد فى وضع هجومى ليضرب مروان مرة أخرى ببندقيته. ولكن مروان رفع جوازات السفر عاليًا؛ وما إن رآها الضابط حتى تغير وضعه الهجومى إلى وضع ترحيـب. وما إن تفحص الجوازات حتى بدأ فى لوم مروان لعدم إعلانه عن جنسيته الكنديـة منذ البداية. ورد مروان بأن كل ما كان يخطر بباله أنه لبنانى، وأنه كان قـد نـسي جنسيته الأخرى التى سوف تنجيه من مهالك الحرب.

تحرك الأتوبيس بالأجانب من مختلف الجنسيات، ومروان وأسرته ينظرون إلى الأودية الخضراء فى الجنوب. وطفرت من عين مروان دمعة سـقطت علـى جواز سفره الكندى.

البقاء لله

ذهب الأستاذ فتحى كعادته إلى المقهى الذى اعتاد الجلوس عليه كل يوم فى الساعةالسادسة مساءً. وكان كالساعة لا يتأخر عن موعده المعتاد أبدًا. ويبدأ طقوسه المعتادة فى كتابة برنامجه اليومى والذى يبدأ فى الثامنة والنصف بعد صلاة المغرب صيفًا، وفى الخامسة والنصف شتاءً، وينتهى فى الثانية عشر ليلاً فى الصيف ، والتاسعة والنصف فى الشتاء.

وكان عوكل صبى المقهى يداعبه من وقت لآخر ويسأله، "على فين النهاردة يا أستاذ فتحى عمر مكرم ولا رابعة العدوية ، ولا الحامدية الشاذلية ، ولا آل رشدان ؟ " فينهره الأستاذ فتحى كعادته ويطلب منه ألا يتدخل فيما لا يعنيه.

كانت الأسماء التى ذكرها عوكل هى أسماء أشهر المساجد فى القاهرة التى تقام فيها سرادقات العزاء، حيث كانت هذه عادة الأستاذ فتحى فى السنوات العشر الأخيرة الذهاب إلى هذه المساجد لحضور سرادقات العزاء كنوع من الحياة الاجتماعية ، التى كانت قد اختفت من حياته بعد وفاة زوجته ، وهجرة ولده الوحيد إلى كندا ، ووفاة أصدقائه من رواد المقهى واحدًا بعد الآخر، حتى أصبح هو الوحيد الباقى من جيله.

ضاقت به حياته وأصبحت الشقة كالقبر، وحتى المقهى فقد الكثير من بهجته بعد رحيل الأصدقاء. ولم يجد الأستاذ فتحى ضالته إلا فى الحضور لهذه السرادقات، حيث يستمع إلى كبار المقرئين، ثم يتناول فنجان القهوة المعتاد، ثم يصافح أهل المتوفى مرددًا الجملة الشهيرة التى تقال فى مثل هذه المناسبات: "البقاء لله".

كان الأستاذ فتحى يستعد لحضور العزاء من الصباح الباكر حيث يبدأ بقراءة صفحة الوفيات فى الأهرام لاختيار سعداء الحظ من المتوفين، ثم يقوم بكى

بدلته السوداء ، ورابطة عنقه السوداء، وغالبًا ما كان يردد بعض الأغـاني التـي تسليه أثناء كى ملابسه، والتى تتناسب مع المناسبة من نوعية "كان بدرى عليـه .. عليه بدرى" ، "ودايم هو الدايم .. ولا دايم غير الله"، "موعودة ياللى عليكى الـدور" ، ... إلخ، ثم يتناول طعام الغذاء بعد ذلك، وينام القيلولة ويستيقظ ليصلى العـصر، ثم يذهب إلى المقهى فى السادسة تمامًا لكى يرتب جدوله اليومى.

وكان يذهب إلى المساجد التى تقع فى منطقة المهندسين والعجوزة أولاً مثل الحامدية الشاذلية، ومسجد الكواكبى، ثم يعقبهما بالمسجد الرئيس فـى مثـل هـذه المناسبات وهو مسجد عمر مكرم فى ميدان التحرير، ثـم يـستقل المينـى بـاص المتوجه لمدينة نصر لحضور عزاء أو اثنين فى مسجد رابعة العدوية، ومـسجد آل رشدان.

وكان الأستاذ فتحى يذهب إلى تلك السرادقات وكله بهجـة وسـعادة بأنـه سوف يرى أناسًا جديدين ويصافحهم ويقول لهم قولته التى عشقها مع مرور الوقـت "البقاء لله". وأصبح خبيرًا فى تفاصيل هذه المناسبة، فالمتوفى المهـم يـتم تـصوير العزاء بالفيديو، كما تظهر هذه الأهمية مـن الشخـصيات التـى تحـضر العـزاء وملابسهم الفاخرة.

وفى الواقع فإن معظم سرادقات العزاء التى كانت تقام فى المساجد الـسابقة كانت لعلية القوم. كما صار الأستاذ فتحى خبيرًا فى أنواع البن الذى يقدم وهل هـو "طازج" أم "مخزن" ، "محلى" أم "مستورد" ، كما أصبح يفهم فى الكراسى والمناضد المستخدمة فى الفراشة وحتى أنواع السجاد. باختصار صار الموت بتفاصـيله هـو الذى يمنح الحياة للأستاذ فتحى.

وفى أحد الأيام بعد حضور عزاء أحد الفنانين المشهورين فى مسجد عمـر مكرم، استقل الأستاذ فتحى المينى باص المتوجه لمدينة نصر، وفى الطريق تعطـل المينى باص نزل السائق ليصلح ما تعطل فى السيارة، واستغرق هذا قرابة الساعة،

التى كان الأستاذ فتحى فى أثنائها قد أصابه التوتر والقلق من ألا يحضر هذا العزاء الذى يقام فى مسجد آل رشدان كى يختتم به يومه، أو حتى يتأخر عليه ، وهو مـــا حدث بالفعل.

وصل الأستاذ فتحى إلى سرادق العزاء فى تمام الساعة الثانية عـــشر لـــيلاً فالزمن كان صيفًا، لم يجد الأستاذ فى السرادق أحدًا إلا أهل المتوفى كما ظهر مـــن مواقعهم فى أول السرادق، ولعل الكلمة التى لفتت سمع الأستاذ فتحى فى دخوله هى كلمة "ورث" والتى أعقبتها كلمات أخرى تصاحب هذه الكلمة عادةً مثـــل "وصـــية"، "محامى" ، أطيان" ، "إعلام وراثة" ...إلخ

استغرب أهل المتوفى من هذا المُعزّى الذى يأتى متأخرًا، وذهب إليه أحدهم وسأله بصوت خفيض "هل حضرتك كنت من أصحاب المتـــوفى". وأخـــذ الأســـتاذ فتحى يشيد بالمتوفى – والذى لم يكن يعرفه طبعًا – وبكـــرم الرجـــل وأخلاقـــه ، وتصدقه على الفقراء ، ووقوفه بجانب الجميع. وكان هذا القريب يستمع إلى الأستاذ فتحى وتعلو وجهه ابتسامة ، أدرك الأستاذ فتحى بخبرته العزائية أنهـــا مـــن وقـــع كلمات الإطراء التى قالها.

همس هذا القريب المتطفل فى أذن الأستاذ فتحى بأن المتوفى كانـــت ســـيدة ويمكنه الانصراف، ولكن الأستاذ فتحى– والذى تقبل الصدمة بصدر رحب – همس هو الآخر فى أذنه بأنه لن يستطيع أن يغادر قبل أن يتناول فنجان القهـــوة الـــسادة المعتاد ، ابتسم الرجل وأمر بفنجان قهوة للأستاذ فتحى، الذى تناوله فى هدوء، فلـــم يرد أن يفسد هذا الموقف بهجته بتناول فنجان القهوة. وبعد أن انتهـــى مـــن تنـــاول فنجان القهوة، قام ليصافح أقارب المتوفى بكل حرارة، ولم ينس أن يقـــول جملتـــه الشهيرة "البقاء لله" !!!

رنة محمول

استقل الأستاذ مطاوع القطار المتجه للإسكندرية لقضاء إجازة قصيرة ينعم فيها بالهدوء والتأمل بعد أن قدم طلبًا لنقله لرئيس تحرير الجريدة التى يعمل بها، بعد أن ضاق بعمله كمحرر لباب "مشكلة حياتى". حيث كان عليه أن يقرأ بريد القراء يوميًا ليختار من بين المشكلات إحداها ليتم نشرها، عسى أن يقرأها أحد المسئولين ويقوم بحلها لصاحبها.

ولكن بعد أن عمل فى تحرير هذا الباب لأكثر من خمسة عشر سنة، أحس الأستاذ مطاوع أن أطنان من المشكلات والآلام والعذابات التى قرأها تضغط على عقله وقلبه ووجدانه، بل إن الأمر وصل به فى كثير من المرات لأن يصاب بنوبات اكتئاب شديدة اضطر على أثرها لزيارة الأطباء وتناول العشرات من الأدوية.

وكانت هذه النوبات تصيبه من وقت لآخر حينما يحس أنه عاجز عن حل مشكلات القراء، وخاصة فى ظل حالة التقاعس التى تصيب المسئولين بعد أن يتولوا المناصب وينسوا هموم الناس، ويهتم كل واحد منه بتوطيد دعائم الكرسى، ولتذهب مشكلات الناس إلى الجحيم.

كانت هموم الناس تشغله حتى يتحول هم كل واحد منهم إلى هم شخصى يقض مضجعه، فهذا يريد إجراء عملية زرع كبد فى الصين، وآخر تهدم منزله وينام هو وأولاده فِي الشارع، وثالث فقد ابنه وهو صغير ولم يستطعْ العثور عليه، ورابع أصيب ابنه بمرض السرطان، وخامس فصلوه من عمله لأن كشف عن الفساد فى الهيئة التى يعمل بها، وسادس ... ، وسابع ... ، وثامن ... ، وتاسع...، وعاشر ...

فكر الأستاذ مطاوع وطال به التفكير عدة أسابيع، لمذا يتحمل هذه الهموم الإنسانية التى تئن بها الجبال، وتضيق بها البحار، فلماذا لا يطالب بنقله إلى القسم

الفنى حيث أخبار الممثلين والمطربين، وحيث السهرات الفنية الحمراء والزرقاء والسوداء، وحيث يهتم "بالواوا" التى أصابت هيفاء، أو المجاهد الوطنى تامر حسنى، وفستان نانسى عجرم، وإعلانات الصابون التى تقدمها إليسا، ومهرجان "كان" ومهرجان "ما كانش" ... إلخ.

أو لماذا لا ينتقل للعمل فى القسم الرياضى، حيث يحضر المباريات مجانًا، ويحق له دخول كل نوادى أولاد الذوات، وحتى نوادى ذوات الأربع، حيث يدعى للحفلات التى يقيمها الأهلى والزمالك حينما يفوز الأهلى ببطولة كل شهر والزمالك كل عدة سنوات، وحيث يكتب عن اللاعب الذى يطالب ناديه بالسفر للخارج للعلاج من الآلام التى لا تطاق التى تداهمه فى حاجبه كل فترة ، أو ذلك اللاعب الذى ضبط مخمورًا فى وضع مخل مع فتاة ليل فى سيارته، وتدخل كبار رجالات النادى لحل المشكلة وتبرئة ساحة اللاعب.

هذا بلا شك ألذ من هموم الناس التى لا يأتى من ورائها إلا النكد، والقرف، وكسرة النفس ، والإحساس بالعجز والقهر ، اتخذ الأستاذ مطاوع قراره بطلب النقل لأحد القسمين وقدمه لرئيس التحرير الذى صدم من الطلب، وحاول أن يثنيه عن طلبه لأن باب "مشكلة حياتى" باب ثقيل على قلوب الكثير من الصحفيين الذين يفرون منه ، كما يفر السليم من الجذام. ولكن الأستاذ مطاوع أصر على طلبه ، وانطلق من مكتب رئيس التحرير لمحطة مصر ليستقل القطار المتوجه للإسكندرية لينعم بإجازته بعيدًا عن هموم الناس ومشاكلهم.

وبينما هو فى القطار مُغْمِضًا عينيه يمنى نفسه بالبحر، والرمل ، والبلاج ، والحسناوات ، ولتذهب مشكلات الناس إلى الجحيم أو إلى جوانتانامو ، أو حتى إلى العراق، سمع صوت رنين محمول الراكب الذى يجلس أمامه، وعرف من لهف الرجل فى الرد على المكالمة أن فى الأمر شيء ، وفهم من سياق الحديث أن هذا الرجل لديه طفل يعانى من فشل كلوى حاد ويبحث عن متبرع.

لم يستطع الأستاذ مطاوع أن يمنع فضوله الصحفى من الاستماع إلى المكالمة بالكامل، ولكنه نهر نفسه فى آخر المكالمة، وعاد للتفكير اللذيذ فى البحر والرمال والمايوه، وفجأة دوت رنات محمول آخر، وفى هذه المرة كان محمول الراكب الذى يجلس بجواره، وبدأت المكالمة بجملة استفزت كل كوامن الأستاذ مطاوع فقد بدأ هذا الرجل مكالمته بجملة "حسبى الله ونعم الوكيل فيكم يا مرتشين يا كفرة"، واستمرت المكالمة لمدة دقيقتين فهم الأستاذ مطاوع من ردود الراكب أنها عبارة عن سلسلة من التهديدات ؛ لأن ردوده كانت من عينة "أعلى ما فى خيلكم اركبوه" ، "ربنا يمهل ولا يهمل" ، "ربنا ينتقم منكم".

حاول الأستاذ مطاوع أن يعود لنومه اللذيذ مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع، وقام من مقعده وتوجه للراكب الأول واستمع لمشكلته وأعطاه الكارت الخاص به، وعاد لمقعده ليستمع للتفاصيل الكاملة لقصة الراكب الثانى وأعطاه الكارت أيضًا، ثم اقترب القطار من محطة طنطا التى نزل فيها الأستاذ مطاوع ليستقل أول قطار عائد للقاهرة ليسحب طلب نقله !!!

عم على وحدووه

لم يكن هناك شخص واحد فى حى الحسين يعرف يقينًا من هو عم علـى، الذى درج الناس على أن يلقبوه "عم على وحدووه" من كثرة رفعه لأصبعه للسماء وهو يصيح بصوته الأجش "وحدووه". فالبعض كان يقول إن عم على كان موظفًا مرموقًا، ثم خانته زوجته مع أحد أقربائه الذين كان يعطف عليهم؛ ففقد عقله، والبعض الآخر يقول إن عم على كان أحد العساكر الذين خاضوا حرب ٦٧، وقد فقد عقله حينما رأى المروحيات الإسرائيلية تصطاد زملائه؛ وكأنها فى جولة لصيد العصافير، والبعض الآخر يروى حكاية أخرى عن عم على تفيد بأنه فقد زوجته وأولاده فى حادث سيارة مروع ففقد عقله حزنًا عليهم، والبعض الآخر يقول إن عم على أصابه الجنون بعد أن فقد ابنه فى حادث غرق العبارة "السلام"، والبعض الآخر من الصعايدة يؤكدون أنه جن بعد أن احترق ابنه فى حادث قطار الصعيد، والبعض الآخر ... والبعض الآخر ....

تعددت الروايات حول عم على ، ولكن الحقيقة الوحيدة التى يعرفها الجميع أن عم على رجل مجنون، يمشى فى شوارع حى الحسين هائمًا، فيعطف عليه هذا بساندوتش، أو يعطيه "عليش" صبى القهوة كوبًا من الشاى، أو يعطيه أحد المارة "جنيهًا" فتنفرج أساريره. ولكن الجميع يؤكد على أن عم على كان فى كثير من الأحيان يقول كلامًا يبدو فى مجمله وتفصيلاته كلامًا حكيمًا، لا يخرج إلا من لسان فيلسوف، أو حكيم، أو مفكر.

تعود الناس فى حى الحسين على وجود عم على فى حياتهم، ولم يكن أحد يفتقده لأنه كان موجودًا بصفة دائمة، لا يغادر حي الحسين أبدًا، أو بمعنى أصح لا يغادر باحة المسجد أو الشوارع المحيطة بالمسجد أبدًا. وكان الناس يرونه فى حالة من الوجد الصوفى فى مناسبة مولد الحسين، حين تأتى الفرق الصوفية التى تنشد قصائدها الصوفية طيلة الليل.

وفى يوم من الأيام ظهر فى المنطقة رجل ثري يدعى سرحان بك الديب، الذى كان واحدًا من سكان الحى، وهاجر منذ ثلاثين عامًا إلى بلاد الأمريكان، حيث جمع الكثير والكثير من الأموال. لم يكن هناك أحد من شباب الجيل الجديد يعرف هذا الرجل، ولكنهم انبهروا بأمواله، وبمظاهر القوة التى كانت تحيط به، مثل سيارته الشيفروليه والبودى جاردات الذين يحيطون به أينما ذهب، والمصطلحات الإنجليزية التى كان يحشرها فى كلماته.

وكان كبار السن فى الحى يعرفون أصل هذا الرجل ، حيث كانت تعمل أمه دلالة، تبيع الملابس الرخيصة لنساء الحى على أقساط شهرية وكان أبوه يعمل عربجيًّا ، واشتهر الاثنان بسوء الخلق والسمعة.

ولكن هذا الولد سرحان كان مختلفًا عن أبويه، حيث كان كلامه الحلو هو طريقه للوصول إلى أغراضه. لم يختلف عنهما فى سوء الخلق، ولكنه كان مختلفًا فى كيفية تلطيفه لأخلاقه السيئة بحلو حلامه.

ولم يجرؤ أحد من كبار السن أن يفصح عن هذا التاريخ الأسود؛ فقد كان الكل يتوجس خيفة من هذا الرجل، الذى اختفى فجأة من الحى وهو فى الخامسة عشر ثم عاد بعد ثلاثين عامًا بهذا المظهر الأخطبوطى.

الوحيد الذى كانت لديه الجرأة بأن يفضح تاريخ سرحان هو عم على وحدووه، والذى كان كلما رآه يرفع أصبع السبابة للسماء ويقول: "وحدوه، ابن الدلالة والعربجى فى سيدنا الحسين". وكان سرحان كلما رآه يتجهم وجهه، ويأمر البودى جاردات بإبعاد عم على عن وجهه. وكان عم على لا يسكت، ويستمر فى توجيه كلامه لابن الدلالة، الذى لا أصل له، وجاء ليسكن الحى الذى ينضح تاريخًا وحضارة.

بدأ سكان الحى يتهامسون على عروض خيالية لشراء منازلهم، وكان الذين يقدمون هذه العروض أناس مختلفون اتضح مع الوقت أنهم جميعًا تابعون لسرحان الديب. وكثرت الشائعات حول مصدر أموال سرحان الديب، فالبعض يقول إنه تاجر فى المخدرات بأمريكا، والبعض الآخر يقول أنه وسيلة لغسيل أموال حيتان أخرى فى الخفاء، والبعض الآخر يقول إنه كسب هذه الأموال من الدعارة والقوادة.

انقسم أهل الحى إلى قسمين: القسم الأول قرر بيع بيته فى مقابل هذه الأموال الطائلة، لشراء شقة أو فيلا جديدة فى جاردن سيتى أوالمهندسين، أو فى أحد المنتجعات الجديدة فى إحدى المدن الجديدة، وهذا القسم أطلق عليه القسم الآخر سخريةً منهم لقب "العملاء". والقسم الثانى رفض بيع جوار سيدنا الحسين بأى مبلغ، ووجدوا فى بيعهم لبيوتهم خيانة أخرى للحسين رضى الله عنه وأرضاه.

وكان سرحان الديب يكرر جملة اشتهر بها بين سكان الحى "من ليس معى فهو ضدى". وخاف الكثير من بطشه وأرادوا أن يُصنّفوا فى فئة "معى"، أما البعض الآخر فقد أرادوا أن يكونوا "ضده" ولكنهم لم يعلنوها خوفًا من بطشه.

الوحيد الذى أعلن أنه ضد سرحان الديب هو عم على وحدووه، الذى أخذ يعاير كل من باع بيته من سكان الحى، ويغنى له كلما رآه "عواد باع أرضه يا ولاد، شوفوا طوله وعرضه يا ولاد"، بل إنه لم يعد ينادى هؤلاء بأسمائهم، فقد تحولوا جميعًا إلى اسم واحد هو عواد.

وأطلق عم على وحدووه على كل أفراد الفريق الآخر الذى رفض بيع منازله اسم "محمد أبوسويلم". وتحول سكان الحى بالكامل من وجهة نظر عم على وحدووه إلى شخصين لا ثالث لهما : "عواد" و "محمد أبوسويلم"، أما سرحان بك فقد سماه عم على وحدووه "الشيطان الأكبر"؛ لأن سرحان لم يكن من وجهة نظره من بنى البشر حتى يطلق عليه اسمًا بشريًا.

وأشاع سرحان بك أنه يرغب فى هدم المنازل القديمة، ويبنى مكانها حيًا جديدًا أطلق عليه "حى الحسين الجديد"، وسوف يقسم هذا الحى إلى مجاورات صغيرة، وتقسم المجاورة الواحدة إلى عدة شوارع، ويتمتع كل شارع بخدماته الخاصة من محلات وأسواق، تجعله ينفصل تمامًا عن بقية المجاورة؛ وبالتالى ينقسم الحي الواحد إلى عدة مجاورات منعزلة.

بل أشاع سرحان بك أنه سوف يحول الفوضى الموجودة حاليًا إلى فوضى خلاقة، الغرض منها تحويل هذا الحى القديم الأصيل، إلى حى جديد عصرى.

زادت هذه الآراء عم على وحدووه حدةً فى نقده لسرحان بك،والذى أحس بمرور الوقت - بتأثير آراء وحكايات عم على على بقية سكان الحى، فقرر قتله، فاستأجر أحد البلطجية وطلب منه أن يدهسه بالسيارة وهو نائم كعادته على الرصيف. وقام هذا البلطجى وكانت شهرته "زيزو الإنجليزى" بدهس عم على وهو نائم ، واستيقظ السكان على صرخة عم على، وهو رافع أصبع السبابة إلى السماء "وحدووه" !!!

الحب الإلكترونى

كان اليوم الذى اشترى فيه سامح جهاز الكمبيوتر نقطة تحول فى حياته؛ فقد فتح له هذا الجهاز السحرى عالمًا غريبًا وواسعًا، يختلف اختلافًا كليًّا عن عالمه الصغير الذى خلقه لنفسه بانطوائه على نفسه، وانعزاله عن الناس.

كان سامح طوال حياته طفلاً انطوائيًا، يحب الجلوس مع نفسه بالساعات، وحتى حينما كبر ودخل الجامعة، لم يخرج من أسوار عالمه الخاص، فلم يكن له من الأصدقاء إلا صديقه الوحيد عادل، والذى التحق معه بنفس الكلية، وهى كلية التجارة. أما الجنس الآخر فلم يكن سامح يقترب منه سواءً بالخير أو بالشر.

تخرج سامح وعمل محاسبًا فى إحدى الشركات، واستمر فى انعزاله عن الآخرين، ولم تتعد علاقاته بزملائه فى العمل حدود التحيات المعتادة، أو الحديث فى بعض تفاصيل العمل.

وكان زملائه من الرجال يتفهمون شخصيته، ولا يريدون اختراق تلك الجدر التى صنعها بينه وبينهم، أما زميلاته من الجنس الآخر فقد أطلقن عليه لقب "المُعقّد"؛ لنفوره الشديد من التعامل مع المرأة، بصرف النظر عن سنها، أو ملامحها، أو مكانتها الاجتماعية.

ألح عليه صديقه عادل لكى يشترى الكمبيوتر؛ لأن عدم اقتنائه لهذا الجهاز يعنى أنه ما زال يعيش فى العصور الغابرة. اقتنع سامح بوجهة نظر عادل، وذهبا معًا لشراء الجهاز. وكان عادل خبيرًا بكل ما يتعلق بالكمبيوتر، واستطاع أن يشترىلصديقه جهاز بإمكانيات كبيرة، وبسعر ممتاز. وكان عادل هو مرجعه الدائم عند حدوث أى مشكلة.

كان أول يوم لسامح مع الكمبيوتر فتحًا كبيرًا له على الدنيا الأخرى التى لم يعرفها من قبل.

وبدأ سامح يعرف الشات أو الدردشة الإلكترونية، وبدأ يتبادل الإيميلات أو الرسائل الإلكترونية مع الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم. وانعزل سامح تمامًا عن الدنيا، واعتزل حتى أفراد أسرته، وكان يعود من عمله مسرعًا ليدخل حجرته، ويفتح الجهاز العجيب ليقضي وقتًا طويلاً يقترب من الثماني ساعات كل يوم.

وبدأ سامح يلاحظ أنه يتلقى عددًا من الرسائل الإلكترونية الرومانسية، التي تبث صاحبتها أشواقها الحارة وحبها الجارف لعادل. لفتت هذه الرسائل الرومانسية نظره بشدة، وأصبحت هذه الرسائل هي محور حياته. وكانت تصله في اليوم الواحد أكثر من عشر رسائل.

وبدأ هو نفسه يرد على هذه الرسائل من خلال العنوان الإلكتروني الذي يصاحب الرسالة.

وبدأ سامح يفكر فيمن تكون صاحبة هذه الرسائل. وبدأ يشك في الآنسة سهام زميلته في العمل، حتى لاحظ أنها تنظر إليه خلسة من وقت إلى آخر.

ولكن قد تكون هويدا ابنة خالته التي طالما كانت تتعلل بأشياء كثيرة لتزورهم وتراه، بل قد تكون آمال جارتهم، طالبة الحقوق التي تطل حجرتها على حجرته، وكثيرًا ما كان يلاحظها من وراء شباك حجرته، وهي واقفة في شرفتها وتنظر لفترات طويلة إلى شباك حجرته، وقد تكون ... وقد تكون ... قارب رأسه على الانفجار.

وبدأت شخصيته في التغير في تلك الأيام القليلة، فبدأ يهتم بملابسه، ونوع العطر الذي يستخدمه. بل إنه بدأ يلاطف زملائه وزميلاته في العمل، ويحسن إليهم قولاً وفعلاً. وبدأ الكل يلاحظ هذا التغير العجيب، وأيقن الجميع أن في الأمر شيئًا.

فشل سامح في التوصل لصاحبة الرسائل؛ لأن كل الذي كان يدور برأسه هو مجموعة من الشكوك، لا ترقى إلى الحقيقة بأي حال من الأحوال. ولم تساعده

شجاعته فى مواجهة أى واحدة ممن كان يشك فيهن، خشية حدوث ما لا يحمد عقباه.

وفجأة توقفت هذه الرسائل، ولم يعد سامح يتلقى أى رسائل من حبيبته الإلكترونية، وجن جنونه؛ فقد كانت هذه الرسائل هى غذاء روحه الذى أصبح جزءًا لا يتجزأ من حياته.

أرسل سامح عشرات بل مئات الرسائل الإلكترونية إلى حبيبته يبثها أشواقه وأشجانه، ويطلب منها أن تعود إلى كتابة تلك الرسائل، حتى لا يفقد عقله. ولكن مرت الأيام دون أدنى رد؛ وساءت حالته النفسية، وهزل جسمه، وطالت لحيته، وزاغت عينه، وأصبح حطامًا إلكترونيًا إن صح التعبير.

ولم يجد سامح بدًا من أن يصارح عادل بتلك العلاقة؛ ليسأله النصيحة باعتباره صديقه الوحيد فى المقام الأول، وخبير الكمبيوتر الوحيد الذى يعرفه.

استمع عادل إلى مشكلة صديقه سامح باهتمام كبير، وقد بدا على وجهه مزيجًا من المشاعر المتضادة والمتضاربة، مشاعر من الحزن والسعادة، من الصدمة والتصديق، من الاندهاش والإنكار ... إلخ ، وبعد أن انتهى سامح من كلامه، طلب منه صديقه النصح والإرشاد.

وتكلم عادل بشكل مباشر دون مداراة أو إخفاء، من أن ما تعرض له سامح هو عبارة عن فيروس أصاب الكثير من أجهزة الكمبيوتر التى يمتلكها بعض المبتدئين، وأطلق عليه الشباب Love Virus أو فيروس الحب الذى كان عبارة عن رسائل غرامية ملتهبة يتلقاها من يدخل إلى عالم النت الكبير، فى نفس الوقت الذى يقوم فيه هذا الفيروس بإخضاع هذا الجهاز، للشخص الذى صنع أواخترع هذا الفيروس.

واكتشف سامح أنه هام عشقًا فى حب فيروس إلكترونى!!!

كُشك الحكومة

وقف معالى الوزير كاظم الوردانى فى شرفة منزلـــه ينظـــر إلـــى كـــشك الحراسة القابع أمام منزله، وكان القلق ينهش أفكاره فقد علم من زملائـــه الـــوزراء الآخرين أن التعديل الوزارى المزمع قد يكون اليوم.

سرح كاظم بك بخياله وتذكر نشأته المتواضعة فى حى عابدين، وسـنوات عمره الأولى، وكيف كانت والدته تدعو له دائمًا "ياربِ أشوفك وزير يا كـاظم يـا ابنى" ، وهى التى اصرت على تسميته بهذا الاسم لأنه اسم "بـشواتى" كمـا كانـت تقول دائمًا.

مضى فى ذكرياته وتذكر المدرسة الابتدائية ثم الإعداديـة فالثانويـة ثـم الجامعة وكلية الحقوق التى تركت الدراسة فيها أثرًا كبيرًا فى عقله وقلبـه. تـذكر أحداثًا ونسى أخرى ولكن مقولة أمه "يارب أشوفك وزير يا كاظم يابنى" كانت دائمًا تدغدغ أحلامه.

لا يعرف كاظم لماذا كانت أمه تدعو له بتلك الدعوة، ولماذا اختارت كلمـة وزير ولم تختر أن يكون ابنها ملكًا، أو رئيسًا أو حتى رئيسًا للوزراء.

ومر بخاطره كيف التحق بالنيابة وكيلاً لها وكيف ترقى حتى أصبح علـى قمة السلم القضائى، ليكون وزيرًا للعدل.

تذكر تلك الليلة التى لم يغمض له فيها جفن وكيف أنه مكث الليـل بطولـه يحفظ القسم الذى سيقوله أمام رئيس الجمهورية، وكيف كان يتمتم بالدعاء بالرحمـة لأمه من وقت لآخر، وكان يتمنى لو أن الأجل امتد بها لتراه كما تمنته وزيرًا يأمر وينهى.

وتذكر اليوم الذى وضع فيه هذا الكشك أمام منزله، وكيف تحول هذا الكشك الصغير إلى رمز للمهابة والسلطة والنفوذ. وكيف أن أول شيء كان يفعله كل صباح هو أن يفتح الشرفة ليطل على الكشك، ويطمئن على وجوده، وكأن هذا الكشك قد صار رمزًا للبقاء.

انتبه كاظم بك إلى صوت الموسيقى الصاخب لنشرة الساعة السادسة، وأخذت نبضات قلبه تتسارع وكأنها تريد أن تشق أستار الغيب؛ لتعرف ما تخبئه هذه النشرة من أخبار. وحدث ما توقعه كاظم بك؛ وكانت جملة "والمستشار جلال أبو النور وزيرًا للعدل" هى آخر جملة يسمعها، فقد أصابته أزمة قلبية مفاجئة أودت بحياته.

بعد انصراف المُعزين فى اليوم الثانى، والذين كان من بينهم كبار المسئولين وعلى رأسهم وزير العدل الجديد. اجتمع محامى العائلة بأبناء وبنات كاظم بك ليقرءوا وصيته. وأكد لهم المحامى أن والدهم كان قد سلمه هذه الوصية منذ شهرين، دون أن يطلعه على ما بها من تفاصيل، بمعنى أنه مثلهم تمامًا يقرأها للمرة الأولى.

وبدأ الأستاذ سميح المحامى فى قراءة الوصية، والتى بدأت بالديباجة العادية التى تتصدر الوصايا، من أن "كل نفس ذائقة الموت" ، وأن الحياة مزرعة للآخرة، وأن على أولاده أن يتقوا الله؛ لأن كل شيء زائل، ولا يدوم إلا هو سبحانه وتعالى.

وبدأ المحامى – بعد هذا الكلام الطيب – فى قراءة بنود الوصية فيما يتعلق بالتركة. وكان صوت المحامى الرزين الرصين والرتيب يوحى بأنه لا جديد فى الوصية، فكل شيء مقسم طبقًا لما أمر به الشرع. ولكن صوت المحامى بدأ فى الخفوت والاضطراب حينما وصل إلى الثلث الأخير من الوصية، وهو الجزء الذى يوصى فيه كاظم بك– وطبقًا للشرع – بثلث أمواله لرعاية، وتنظيف وصيانة كشك الحراسة !!!

حب فى الجولان

ربط الحب بين قلب مهند وبنت عمته أمل، ولكن المعضلة الرئيسة فى هذا الحب كانت فى أن مهند يعيش فى الجانب الإسرائيلى، بينما تعيش أمل فى الجانب السورى من هضبة الجولان.

وكان الحبيبان يلتقيان عبر الأسوار الشائكة يفصل بينهما عشرة أمتار من هذه الأسلاك، وإذا أراد مهند أن يسر بشيء لحبيبته – التى صارت خطيبته مع الوقت – كان يحادثها هاتفيًا عن طريق قبرص ؛ لأن الاتصالات المباشرة ممنوعة.

وكان يوم قراءة الفاتحة والخطبة يومًا مشهودًا ، حيث اجتمع أهل مهند على الجانب الإسرائيلى، واجتمع أهل أمل على الجانب السورى من الهضبة وأخذ الفريقان يقرأن الفاتحة بصوت جهورى مرتفع حتى يسمع الجانب الآخر، مما جعل الدموع تتساقط من أعين الجميع، وطارت بهم أشجانهم إلى اليوم الذى انشطرت فيه العائلة منذ أربعين سنة بعد احتلال العدو الإسرائيلى للهضبة.

اتفق الاثنان على الزواج فى الصيف، وبقيت معضلة التنفيذ، فقد كان من المستحيل أن ينتقل العريس إلى الجانب السورى وهذا غير مسموح به من الجانبين السورى والإسرائيلى.

وكان الحل الوحيد هو انتقال أمل إلى الجانب الآخر المحتل، وكان هذا معناه أنها لن تستطيع العودة مرة أخرى، إلا إذا تحررت الجولان.

كان القرار صعبًا على أسرة أمل ولكنهم قرروا فى النهاية أن شمل الأسرة يجب أن يجتمع، وتم عقد القران، وكان مشهدًا كوميديًا مأساويًا فى نفس الوقت، والمأذون موجود على الجانب السورى، وينادى بأعلى صوته على مهند لكى يقول "وأنا أطلب زواج موكلتك ..."، ثم يطلب من والد أمل أن يقول بأعلى صوته حتى

يسمعه مهند وأسرته على الجانب الآخر "وأنا قبلت"، ثم نادى المأذون بأعلى صوته طالبًا من الأسرتين أن يقولا بصوت عال "بارك الله لكما وبـــارك عليكمـــا وجمـــع بينكما فى خير"

ثم جاءت اللحظة الحاسمة، وودعت أمل أسرتها وتجاوزت الأسلاك الشائكة ونقاط التفتيش الإسرائيلية، وتجاوزت أيضًا ألغامًا أرضية على الجانــب الــسورى، كان المهم أن يجتمع شمل الأسرة على أن يجتمع فى يوم من الأيام شمل الجــولان نفسها !!!

عودة من اللاعودة

استيقظت اليوم مبكرًا على غير عادتي، أردت أن أقوم من سريري فلم أستطع ما الذي يحدث؟! عيناني جاحظتان، يداي وقدماي لا تتحركان، لا أشعر بالحياة في دمي، أردت أن أصرخ فلم يتحرك لساني، مكثت على هذه الحالة أكثر من ساعة.

جاءت والدتي لتوقظني للذهاب للكلية، أخذت تحاول إيقاظي ولكنها فوجئت بعيني جاحظتين، فبدأت تهزني بعنف قائلة: طارق ، ما الذي جرى ثم تجمع إخوتي حولي وأخذوا يبكون، وتجمع الجيران حول سريري وسمعتهم يقولون "لا حول ولا قوة إلا بالله، إن لله وإنا إليه راجعون، كان شاب كويس ومستقيم الله يرحمه".

كانت هذه الكلمات ترن في أذني كصوت الثلج على زجاج النافذة في ليلة شتاء باردة. حاولت أن أصرخ: أنا لم أمت صدقوني، أمي ! أخي ! أختي شيماء ! أنا لم أمت، ولكن لساني لا يتحرك، وعيناي ظلتا جاحظتان كما هما، وكانت هذه الصرخات مجرد صدى صوت يتردد بداخلي، فلا أحد يسمعني.

وبدأت أسأل نفسي هل أنا فعلاً ميت؟! هل صعدت روحي إلى بارئها؟ فكانت إجابتي بالنفي: لأنني ما زلت أحس أنني ما زلت حيًا، ولكنني لا أحس بطعم الحياة، لم أعد أسمع نبضات قلبي، لم أعد أشعر بوجود عقلي، ولكن كل ما أشعر به هو أنني مازلت حيا.

أنا لم أمت، صدقوني أنا حي، أنا حي، يا رب ساعدني، هل هي مؤامرة لقتلي؟! أو مؤامرة لتدمير إحساسي بالحياة؟ ولكني لا أشرع بشيء، ثم دخل عصام وتامر – أعز أصدقائي – ووجدتهما يبكيان بشدة ويقولا أنهما لا يصدقان أنني مت لأنني كنت معهم بالأمس نلعب الكرة ، وفجأة وجدتهم يغطونني ببطانيتي أردت أن

أزيح الغطاء من على وجهي فلم أستطع ولم تتحرك يداى، لماذا يريدون كتم أنفاسي، ولكن لم تعد لدى حتى أنفاس أو زفرات.

وفجأة وجدت رجلاً لا أعرفه يدخل علينا ويقول بصوت أجش "وحدووه" أرد أن أقول "لا إله إلا الله" ولكنني لم أستطع، وأدركت أن هذا الرجل هو الحانوتي. ثم بدأ هذا الرجل يجردني من ملابسي، يا إلهي جسدى كله يتكشف أمام هذا الرجل، أردت أن أقاوم ولكنه بدأ يقلبني إلى اليمين تارةً وإلى الشمال تارةً أخرى ويغرق جسدي بالماء البارد، أردت أن أصرخ بأعلى صوتي أنني لم أمت ولكنني لم أستطع.

يا إلهي: أصبحت عاريًا من كل شيء حتى من روحي وذاتي ونفسي، لم أعد أساوى شيئًا.

وبدأ هذا الرجل يلفني بكفن أبيض ناصع البياض ولكن هذا البياض كان سوادًا في عيني لأنني لا أحس بأي شيء.

وفجأة وجدت نفسي سجينًا في هذا الكفن، يا ربي، إن الشعور بالخوف والفزع يمزق أوصالي. وفجأة وجدت نفسي داخل سجن آخر وهو نعش من الخشب، أردت أن أذكر بعض آيات من القرآن فلم يتحرك لساني، أردت أن أستغيث بالله فلم يتحرك لساني. ولكن ما زلت أشعر أنني حي. وفجأة وجدت نفسي محمولاً فوق الأكتاف، أردت أن أقفز من سجني أقصد النعش ولكني لم أستطع.

أكاد أجن من الخوف الذي يقتلع جذور قلبي، وفجأة أدخلوني إلى مسجد قريب لكي يُصلى عليّ، أحسست ببعض الطمأنينة ولكن بعدها حملني الناس إلى المقابر كي أدفن، أخذت مقاومي تزيد وأخذت أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، ولكن كل هذا كان مجرد أصوات تتردد بداخلي.

وفجأة توقف الناس بنعشى أمام أحد القبور، وصاح أحد الناس بصوت أجش "وحدووه" يا إلهى كن بجانبى، هل سيدخلوننى فى هذا القبر، يا إلهى أنقذنى، يا رب يا رب، ثم أخرجونى من النعش وجاء اللحاد ليضعنى فى القبر، حملنى أصـــدقائى مع أخى وأبى، ولكننى أخذت أقاوم، يا رب أنقذنى لا .. لا .. لا تدخلونى أنا حـــى، أنا حى، أنا لم أمت، صدقونى لم أمت، صدقونى لم أمت ، أقسم بالله ما زلت حيّـــا، لا .. لا .. لا.

أخذت أقاوم وأقاوم ولكن يداى وقدماى لا تتحركان، ثم أدخلونى إلى القبر، وسمعتهم وهم ينصرفون، وجدت نفسى فى مكان حالك الظـــلام، لا أرى أى شـــيء سوى السواد.

وفجأة وجدت يدًا تخرج من هذا الظلام وتقترب منى، انخلع قلبى من شـــدة الخوف، وأمسكتنى هذه اليد من كتفى وأخذت تهزنى بعنف وبقسوة، وفتحت عينـــى فوجدتها يد أمى تحاول إيقاظى وأنا فوق سريرى أدركت ساعتها أنه كان كابوسًا!!!

إنى أحترق

لا أعرف ما هذه الرائحة التى تشبه رائحة الحريق الذى تملأ أنفى طيلة الوقت، إنها لا تشبه رائحة حريق بالفعل، ولربما هذا ليس بحريق عادى ، ولكنه حريق الأعصاب الذى يحس به المرء حينما يخونه أعز الناس.

وأكثر الناس الذين تقف بجانبهم هم أكثر الناس جحودًا وقسوة عليك، ولعل سارتر كان صادقًا حينما قال "إن الجحيم هو الآخر"، نعم الجحيم هو الآخر الذى ينسى المعروف، وينسى فضل الناس عليه، ينسى أولئك الناس الذين أخذوا بيده ، وصنعوا منه شخصًا له كيان ووجود فى هذا العالم، وكان الأديب الأمريكى مارك توين محقًا حينما قال "كلما أسديت معروفًا لإنسان أغفر له مقدمًا الجحود الذى سوف ألقاه منه بعد ذلك".

يا إلهى ما رائحة الحريق هذه التى لا تفارقنى. ها قد عاد مدحت إلى حجرته ولم ينظر إلى أو لم يعد يخاطبنى عن طموحاته فى الالتحاق بكلية الهندسية لكى يكون مهندسًا نابهًا يبنى مصنعًا فى كل مدينة وجسرًا فوق كل نهر، وبيتًا لكل مشرد، ودار عبادة لكل من يقصد الله.

نسى هذا كله، نسى أننى سهرت معه ليال طوال، ليال قتله فيها اليأس مرات، وأنقذه الأمل فيه مرات أكثر.

ها هو بعد أن نجح وحصل على ما كان يتمنى يدخل حجرته ليغير ملابسه، و يلبس أحسن ما عنده فى دولابه؛ ليحتفل بالنجاح مع أصحابه وأصدقائه، ونسى أننى صديقته الوحيدة فى أيام الكفاح، نسى أننى كنت له النور والنبراس الذى يجعله يرى بين السطور ما عجز الكثير من الطلاب الآخرين على أن يفهموه.

نسى أنه لولاى ما ملأت الفرحة المنزل بنجاحه، ولولاى لما اشترى هذه الملابس الجديدة التى يتباهى بها أمام المرآة ، ولولاى ... ولولاى ... وقفت بجانبه حتى أصبحت كالوردة الذابلة التى تموت كل يوم.

ها هو ينتهى من ارتداء ملابسه، ويضع العطر الذى يحبه، ويهم أن يغادر الحجرة، دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى، وكأننى غير موجودة، وكأننى هباءً منثورًا لا قيمة له، بل أصبحت فى نظره عدمًا لا يراه من الأصل.

يا إلهى كل هذا الجحود فى قلوب عبادك، يا إلهى هل صار نكران الجميل هو القاعدة، وصار الولاء والاعتراف بالفضل هو الاستثناء.

ولكن إذا كان الناس ينسون فضل المولى عليهم حينما يأخذ بأيديهم، فهل يتذكر مدحت وقوفى بجانبه، ومرافقتى له فى طريق النجاح والتفوق، هل لهذه الأسئلة إجابات، ربما، يا إلهى ما رائحة الحريق هذه التى لا تفارق أنفى ليل نهار.
يا إلهى يبدو أننى نسيت أننى مجرد شمعة !!!

.٩٠٠

ولدت مديحة بأنف كبير جدًا، نغص عليها حياتها وحولها إلى إنسان يكره الخروج إلى الشارع، أو حتى الذهاب إلى المدرسة، ففى المدرسة كان يطلق عليها زملاؤها اسم خوفو حيث كانوا يعتبرون أنفها الهرم الأكبر، وفى المنطقة التى تسكن فيها كانوا يسمونها الهضبة، ومغزى الاسم معروف طبعًا.

ضاقت مديحة بحياتها، ولم يكن يخفف عليها سوى والدتها، تلك الإنسانة المؤمنة الصابرة التى كانت تقول لها دائمًا إنه لا يوجد أكمل مما خلق الله، وعلى الإنسان أن يبحث فى داخله لأن الله سبحانه وتعالى خلق الكثير من جوانب الإنسان الجميلة أظهر للإنسان بعضها ، وترك البعض الآخر للإنسان ليكتشفه بنفسه. ولكن مديحة كانت لا ترى فى نفسها سوى هذا الأنف الكبير.

كبرت مديحة وأصبحت شابة يافعة، وكبر معها أنفها وصار أنفًا يافعًا لا تخطئه عين، ولا يتركه إنسان حتى يتأمل جوانبه ومنحنياته وطرقه وشوارعه.

وكان هدف مديحة فى الحياة أن تجرى عملية تجميل تجعل أنفها صغيرًا كأنف هيفاء وهبى أو رومانيًا كأنف إليسا، أو شقيًا مثل أنف نانسى عجرم، أو أى أنف المهم ألا يكون هذا الأنف.

ولكن من أين بالتكاليف، وهى تسمع أن تكاليف مثل هذه العمليات تتعدى العشرين ألف جنيه.

وكانت كل ما استطاعت أن تدخره منذ كانت فى الابتدائية وحتى نهاية المرحلة الجامعية لم يتعدى الخمسة آلاف جنيه، ولكنها كانت كافية لإجراء الجراحة عند طبيب شاب فى المحافظة التى تسكن فيها، والذى أقنعها بقدراته على حل المشكلة وتحويل هذا الأنف البرى إلى أنف مستأنس مروض.

أيد كل أفراد الأسرة فكرة إجراء العملية ولم يعترض سوى والـدتها التـى أخذت تعيد نفس كلامها السابق، ولكنها أضافت إليه عبارات تتعلق بتغيير خلق الله، وأن على الإنسان أن يرضى بما قسمه الله وذكرتها بأن الشيطان توعد الإنسان بأنه سيجعله يغير خلق الله وتلت عليها الآية الكريمة فـى سـورة النـساء "ولأضـلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلـق الله ومـن يتخـذ الشيطان وليًا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا".

وذكرتها بقول عيسى عليه السلام حينما سئل عن أفضل العبـادات وكـان جوابه "الرضا بالله وعن الله".

لم تنصت مديحة لنصيحة والدتها، وأصرت على إجراء العمليـة، وأخـذت تمنى نفسها بأنها سوف تحصل على انف يشبه أنوف الممثلات والمطربات.

ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن فقد فشلت العمليـة فـشلاً ذريعًـا لحداثة عهد الطبيب بمثل هذه الجراحات، ولم يبق هذا الفشل الجراحى علـى أنفهـا كما كان بل إن الجراحة قد أدت إلى ظهور فتحة من فتحتـى الأنـف أكبـر مـن الأخرى. ولم تعد المشكلة هى ضخامة الأنف فقط ولكن عدم التناسق بين فتحتيه.

ذهبت مديحة إلى عشرات الأطباء الذين أخبروها أنها تحتاج إلـى جراحـة تجميل أخرى، ويفضل إجراؤها فى الخارج وسوف تتكلف عشرة آلاف دولار على أقل تقدير، وأسقط فى يدها فكيف لها أن تحصل على هذا المبلغ الكبير.

وتحولت الدنيا إلى اللون الأسود وتلاشت الألوان الأخرى لون بعد الآخـر، ولكن ظهر وميض من الأمل فى شكل المسابقات التليفزيونيـة التـى تطلـب مـن المشاهد الإجابة على أحد الأسئلة ثم الاتصال برقم يبدأ بـ ٠٩٠٠، وكـان سـؤال المسابقة التى اشتركت فيها مديحة سهلاً، وكان من هو الذى بنى الهرم الأكبـر (١) خوفو (٢) محمد أبوتريكة (٣) سعد الصغير، وكانت هناك أربعة جوائز وهى

عشرة آلاف دولار للفائز الأول ، وسبعة آلاف دولار للفائز الثانى، وخمسة آلاف دولار للفائز الثالث، وجائزة أخرى قيمة للفائز الرابع، ولم يوضح الإعلان ما هى هذه الجائزة القيمة.

لا تعرف مديحة لماذا كانت على يقين أنها ستفوز فى هذه المسابقة، وجاءت الرياح هذه المرة بما تشتهى السفن، وفازت مديحة فى المسابقة، ولكنها لم تفز بأحد الجوائز المالية الثلاث الأولى، ولكنها فازت بالجائزة الرابعة القيمة ، والتى كانت عبارة عن حلق من الألماظ يوضع فى الأنف لإبراز جماله !!!

يوم حرية

أقبلت الفتاة الجميلة على القفص الذى تحتفظ بداخله بعصفورها الكناريا الجميل. فقد كان هذا العصفور هو سلوتها الوحيدة فى الدنيا، فهى وحيدة أبويها وليس لها أصدقاء.

وكانت تعامل هذا العصفور معاملة رقيقة جدًا وكأنه طفلها الصغير. ولكن هذا العصفور الجميل كان يبدو حزينًا ليس لأنه وحيدًا فى قفصه – كما كانت تعتقد الفتاة – ولكن لأنه كان ينظر دائمًا إلى السماء الزرقاء من فوقه وما بها من طيور تحلق هنا وهناك، وكثيرًا ما كان يريد أن يعرف طعم أو مذاق تلك الحرية، وكيف هو الشعور بالطيران فى هذه السماء الواسعة، ولكنه كان دائمًا يتذكر هذه الفتاة الصغيرة، وكيف أنها لا تستطيع الاستغناء عنه، وأنها ربما تموت كمدًا إذا هو ابتعد عنها.

ولكن حلم الحرية كان دائمًا يداعبه وينغص عليه حياته، فالحرية أجمل ألف مرة من العيش فى قفص ذهبى حتى ولو فى صحبة هذه الفتاة الجميلة.

حتى إذا جاء أحد الأيام وجاءت الفتاة الجميلة حاملة الطعام وفتح باب القفص، فغافلها العصفور وطار بكل ما أوتى من قوة، وسمع من على بعد صراخ الفتاة ولكنه لم ينظر خلفه، وأخذ يحلق عاليًا حتى بلغ عنان السماء، وأخذ يتقلب يمينًا تارة وشمالاً تارة أخرى وهو يحس بلذة ونشوة ليس لها نهاية.

وأخذ يطير ويطير حتى ظن أنه سيظل طائرًا حتى يوم القيامة، وبعد دقائق تعبت أجنحته، وخارت قواه، وتذكر الفتاة الجميلة وحزنها على فراقه، فقرر أن يعود ولكن المسافة كبيرة جدًا، ولكنه عزم على العودة فأخذ يطير ويطير حتى بلغ باب القفص.

ووجد الفتاة نائمة بجانب القفص وباب القفص مفتوح وأحست به الفتاة وهو يطير حولها، فاستيقظت وحاولت أن تمسك به ولكن قوة العصفور كانت قد نفــدت فوقع على الأرض صريعًا ولكنه مات وعلى شفتيه ابتسامة لأنه عاش يومًــا مــن الحرية!!!

الكنز

كان حلم الثراء السريع يسيطر على عواد من صغره، ولكنه لا يعرف كيف يحقق هذا الثراء السريع وهو فلاح بسيط يعمل أجيرًا في أرض غيره.

وقد حاول مرارًا وتكرارًا مرة بالسفر إلى الكويت، ولكن حرب الخليج الأولى قضت على حلم الثراء وعاد من الكويت بجلبابه فقط، ومرة بمحاولة الهجرة غير الشرعية إلى إيطاليا ولكنه وقع ضحية لعصابة من النصابين جعلته مدينًا بالآلاف من الجنيهات لعدد من البشر الذين أخذوا يطالبونه بأموالهم والتي لم يستطع – بالطبع – ردها.

تكالبت على عواد الديون وقبلها الهموم حتى صارت جبالاً تطبق على صدره، وتكتم أنفاسه، وتزهق روحه الساعية دائمًا للثراء، وفي يوم من الأيام وبعد أن ضاقت نفسه بالدنيا وما بها وما عليها وجد حلاً في أحد الدجالين الذي تعرف عليه عن طريق صديقه دياب، والذي يحلم هو الآخر بالثراء السريع.

كان هذا الدجال قد ذاع صيته في هذه الناحية من الصعيد، وكانت الشائعات تدور حول قدرة هذا الرجل على تحضير الجان، وتسخيره للوصول إلى الكنوز المدفونة في الأرض، في هذه المنطقة من صعيد مصر حيث تكثر الآثار الفرعونية المدفونة في الأرض، والتي لا تقدر بثمن.

وكان لهذا الدجال أو الشيطان قدرات خارقة في إقناع من حوله بقدراته، وملكاته ، ومواهبه.

تعرف عواد ودياب على هذا الدجال، والذي أقنعهم بأنه يوجد كنز مدفون تحت بيت عواد، ولكن للوصول إلى هذا الكنز يجب تجهيز كمية من الزئبق

الأحمر، وكمية من دم آدمى مات حديثا ،وهى الأشياء التى يطلبها الجن للقيام بالمهمة.

أسقط فى يد كل من عواد ودياب وخاصة بعد أن عرفا أن كيلو الزئبق الأحمر يباع بمليون جنيه، ويأتى به البعض من بلاد المغرب. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى من أين لهم بدم آدمى مات حديثًا ، وخاصة أن الدجال أخبرهما أن الدم يجب أن يكون دافئًا حتى تقتنع الجان به وتنفذ لهما ما يريدان.

فكر عواد ودياب وهداهما التفكير الشيطانى إلى قتل جلال بك ذلك الإقطاعى الذى يسكن فى أطراف البلدة، ويكونان بهذا قد ضربا عصفورين بحجر واحد، سرقة أموال هذا الرجل الثرى، وأخذ كمية من دمه تكفى لتحقيق المراد.

وفى ليلة التنفيذ تسلق عواد ودياب أسوار قصر هذا الرجل، ودخلا لحجرة نومه وذبحاه، وانشغل أحدهما بكسر خزنة هذا الرجل، وانشغل الآخر بأخذ كمية من الدم المطلوبة من وريد رقبة هذا الرجل.

وأسرعا بالأموال والدم للدجال، والذى كان قد أعد لهم الكمية المطلوبة من الزئبق الأحمر فى مقابل الأموال التى سرقاها.

وبدأ الدجال جلسة تحضير فى جو يسوده الظلام، وفى ظل ضوء خافت لشمعة وحيدة، وسيطر الخوف على قلبى عواد ودياب على الرغم من إجرامهما. وفى نهاية الجلسة وجدا ورقة معلقة فى سقف الحجرة مكتوبة باللغة الهيروغليفية. وأخبرهما الدجال أن هذه الورقة هى خريطة الكنز، وسوف يقوم هو بتسخير أحد الجان لترجمة هذه الورقة إلى اللغة العربية، وقام الجان المترجم بالمطلوب.

وكانت الورقة تصف مقبرة بها مومياء لأحد المسئولين فى العهد الفرعونى، وكانت الورقة تشير إلى كنز سمين فى المقبرة موجود فى مشكاة.

واصل عواد ودياب الليل بالنهار فى الحفر للوصول إلـى الكنـز. وفعـلاً وصل الإثنان إلى جدار المقبرة، ووجدا المومياء مسجاة ولـم يجـد فـى تـابوت المومياء، أو حوله أى كنز. وأخذا فى البحث عن المشكاة التى وجـداها، وعثـروا على مجموعة من المخطوطات، وهى الكنـز المقـصود، وحينمـا ترجمـا هـذه المخطوطات عند أحد المختصين ، وجداها عبارة عن مجموعة من النصائح القيمة، كان أهمها "من قتل يُقتل ولو بعد حين" !!!

البلياتشو

جلس عم فوزى البلياتشو فى غرفته فى السيرك يضع المساحيق على وجهه؛ استعدادًا لأداء فقرته فى عرض السيرك، والقلق يكاد يقتله. فابنه رامى فى المستشفى يجرى جراحة دقيقة لإصلاح العطب الذى أصاب أحد صمامات القلب.

حاول عم فوزى الاعتذار عن الحضور هذا اليوم ولكن إدارة السيرك رفضت لتكراره تغيبه فى الفترة الأخيرة بسبب مرض ابنه.

حاول مدير السيرك أن يهدئ من روعه قبل عدة أيام حينما قال له أن مهمة من يعمل فى السيرك هى إسعاد الناس، وأن مهمته هو على وجه الخصوص هى إسعاد الأطفال، الذين يأتون مع أهاليهم عادةً لمشاهدة البلياتشو، والضحك على حركاته الكوميدية والألوان الصارخة التى تغطى وجهه، والأنف البلاستيكى الطويل، وهذا الأنف هو أكثر ما يسعد الأطفال، وخاصة حينما يشده البلياتشو إلى الإمام بفضل ذلك المطاط الذى يمسك بالأنف.

أوشك عم فوزى على الانتهاء من وضع المساحيق على وجهه، وأوشك القلق مع ذلك أن ينهى عليه هلعًا على ابنه ، وهو فى انتظار مكالمة تليفونية من زوجته لتطمئنه على ابنه الوحيد، والذى كان يرجوه من الله.

واستجاب الله لدعائه ، وجاء رامى بعد خمسة عشر سنة من الزواج، وأكثر من خمسة عشر ألف محاولة للحمل بدءًا من التلقيح الصناعى، ومرورًا بطفل الأنابيب، ووصولاً إلى اليأس من الإنجاب.

ولكن بعد أن استبد بهما اليأس وتوقفا عن العلاج، جاء رامى إلى الدنيا بحمل طبيعى، وكأن الله يقول لهما – كما كان يعتقد الاثنان – "كل شيء بأوان أنا الذى أحدده".

وأخيرًا جاء عم غريب عامل التليفون لينادى على عم فـوزى؛ لأن هنـاك مكالمة له، وجرى عم فوزى إلى مكان السويتش، وسـمع صـوت زوجتـه علـى الطرف الآخر تخبره بنجاح العملية. لم يسمع عم فوزى بقية المكالمة التى تناولـت تفاصيل أخرى تتعلق بأهمية أن يمكث رامى فى غرفة الإنعاش لمدة ثلاثـة أيـام ، والأدوية المطلوبة، والنظام الغذائي ... و ... و ...

غطت دموع الفرح وجه عم فوزى وتساقطت من أنفه البلاستيكى. مسح عم فوزى دموعه وشد الأنف البلاستيكى للأمام وذهب ليؤدى فقرته!!!

أرزاق

خرج مسعد كعادته من بيته الساعة الخامسة والنصف بعد صلاة الفجر ليحتل موقعه فى ميدان الجيزة الفسيح لكى يلحق بالأفواج الأولى من الموظفين والطلاب وجنود القوات المسلحة لكى يقوم بتلميع أحذيتهم.

وفى الطريق وقف مسعد على أحد عربات الفول ليتناول طعام الإفطار كالعادة، ثم جلس فى مكانه المعتاد بجانب مقهى كوكب الشرق.

وكان مسعد قد اشتهر بين زبائنه ببراعته فى تلميع الأحذية حتى أنه يحول الأحذية القديمة إلى أحذية تلمع فى ضوء الشمس وصارت صداقة وطيدة بين مسعد والأحذية، حتى أنه كان يعرف من شكل ونوعية الحذاء مدى ثراء أو فقر ذلك الشخص الذى يقف أمامه.

ومع الوقت تعود مسعد ألا ينظر لوجوه زبائنه مكتفيًا بالنظر إلى الأحذية التى تبث له الأسرار المختلفة عن أصحابها.

فهذا الحذاء الضخم أو ما يعرف بين العامة "بالبيادة" هو حذاء لأحد جنود القوات المسلحة الذين يحرصون على تلميع أحذيتهم حتى لا يتعرضوا للعقاب فى وحداتهم العسكرية، وهذا الحذاء القديم الذى تعلوه طبقات من الطين يدل على أن صاحبه يسكن فى منطقة شعبية لا توجد بها شوارع مرصوفة، وهذا الحذاءالإيطالى البنى المصنوع من الجلد الطبيعى وحفر عليه العلامة التجارية يدل على أن صاحبه من الأثرياء الذين يستطيعون شراء مثل هذه الأحذية و ... و.... و...

وفى أحد الأيام وبينما هو جالس ينتظر ظهور أحد الزبائن الذى ظهر فجأة ووضع حذائه على صندوق الورنيش وقال بصوت أجش ولهجة آمرة "بسرعة يا ابنى أنا مستعجل".

ولا يدرى مسعد لماذا نظر هذه المرة إلى وجه ذلك الزبون، والذى سرعان ما اكتشف أنه هانى الذى كان يجلس بجانبه فى مدرسة الجيزة الإعدادية. ولكنه أصبح ضابط شرطة وعلى كتفيه ثلاث نجوم تدل على أنه أصبح برتبة نقيب. ولكن بدا أن هانى لم يتعرف على مسعد ربما لطول الفترة التى زادت عن الخمسة عشر عامًا.

وفى الفترة التى قضاها هانى باشا فى تلميع حذائه، رجع مسعد بذكرياته إلى الوراء، وتذكر كيف أنه كان طالبًا متفوقًا وأن هانى هذا كان من الطلاب المتأخرين دراسيًا، وكيف أن هانى كان يغش منه فى الامتحانات حتى ينجح، وكيف أنه كان يطلب من مسعد دائمًا أن يذاكرا معًا فى شقة هانى الفسيحة والتى تطل على حديقة الحيوان فى الجيزة.

وتذكر مسعد أيضًا ذلك اليوم المشئوم، وهو فى السنة الثالثة من المرحلة الإعدادية، ذلك اليوم الذى مات فيه والده والذى كان يعمل حارسًا لأحد العمارات، وكيف اضطر مسعد إلى ترك دراسته لكى يساعد والدته- فهو أكبر إخوته – فى الإنفاق على بقية إخوته. وكيف مضت به الأيام واستطاع إخوته أن يشقوا طريقهم فى الحياة، وتذكر ذلك اليوم المشئوم الذى ماتت فيه والدته.

وتذكر أيضًا كيف تعرف على سعاد تلك الفتاة البسيطة التى كانت تبيع المناديل الورقية فى الإشارات، والتى أصبحت زوجته فيما بعد. وتذكر مسعد أنه كان يشكر الله على هذه الزوجة الطيبة التى لا تكل ولا تمل من خدمته وخدمة ولديه سعد وعيد.

مرت هذه الأحداث بذاكرة مسعد كالبرق، وغمره إحساس بالرضا بما قسمه الله له. وظل مسعد شاردًا ولكنه انتبه على صوت رنين محمول هانى باشا الذى بدت عليه علامات الضيق حنما نظر إلى الرقم الذى ظهر على شاشة المحمول، ورد هانى على التليفون وظهر من الحوار أن المتحدث الآخر هو حما هانى وأنه

ثمة مشكلة بين هانى وزوجته، وسمع مسعد هانى وهو يقول لحماه "بنتك مش متربية يا سعادة المستشار، وأنا هاسيبها كده زى البيت الوقف، وابنى هاخده بالمحاكم، بالذوق ، بالعافية".

وهنا تذكر مسعد سعاد زوجته الطيبة، التى تودعه يوميًّا عند باب الحجرة التى يسكنون فيها فوق أحد أسطح المنازل القديمة فى حى بولاق الدكرور، وتذكر عم سيد أبوسعاد بائع العرقسوس، والذى يدور فى الشوارع والحارات والأزقة منذ بزوغ الفجر وحتى غروب الشمس.

وانتبه مسعد على صوت هانى باشا يقول لحماه "فى ستين داهية"، ونظر لمسعد نظرة غاضبة، وصاح قائلاً: "ما تخلص يا زفت" ، وهنا تدارك مسعد الموقف وأجاب "كله تمام يا باشا".

وألقى هانى باشا بورقة نقدية من فئة الربع جنيه – مع أن الزبائن الآخرين يدفعون ما بين الخمسين والخمسة وسبعين قرشًا – فى وجه مسعد. والتقط مسعد الربع جنيه، ونظر له ونظر لصندوق الورنيش، ونظر لهانى باشا وهو يغيب بين الناس، ونظر إلى السماء، وتذكر زوجته، وصاح مرة أخرى "تلمّع يا بيه".

سطو مسلح

جلس عم إمام في متجره واضعًا خده على يده، كرمز للعجز والهم وقلة الحيلة، فقد اختفت الزبائن دون رجعة، وأصبح الزبون الدائم رابع المستحيلات بعد الغول والعنقاء والخل الوفي.

فلم يعد الناس قادرين على شراء لعب الأطفال لأطفالهم، ليس فقط لارتفاع أسعارها، ولكن لأنهم لا يجدون أقواتهم في المقام الأول. وأصبح الأب يكدح طوال النهار لكي يوفر لأولاده الطعام والشراب وربما التعليم.

كان عم إمام معروفًا في المنطقة التي يوجد فيها متجره، فقد كان محبوبًا من الجميع ولا سيما الأطفال لطيبة قلبه، ونقاء سريرته، وعطفه على الجميع كبارًا وصغارًا.

وكثيرًا ما كان يقدم اللعب بالمجان للأطفال الأيتام من الجيران الذين كان يسكنون بالقرب من متجره في الفجالة، أو مسكنه في بولاق أبو العلا.

لم تعد للتجارة في لعب الأطفال مكانًا، وتراكمت الديون على عم إمام، وبدأ عم إمام في محاولات لضغط الإنفاق، فقام بتسريح العاملين اللذين كانا يعملان معه في المتجر في يوم بكى فيه الرجلان، وأبكيا عم إمام الذي كان يستدين ليدفع لهما راتبيهما.

جلس عم إمام في هذا اليوم يبكي، يبكي كل شيء مجدي وجمال العاملين المخلصين، اللذين لم يخذلاه في يوم من الأيام.

يبكي ذلك العوز الذي جعله يقطع أرزاق الناس بيده، يبكي ذلك الزمان الذي يغتصب فيه الأطفال الصغار على يد التوربيني ثم يُلقى بهم تحت عجلات

القطار، يبكى على متجره الذى كان يعج بالأطفال من كل الأعمار، وأصبح خرابًا تكاد اللعب والدمى فيه تشكو الوحدة، والغربة.

فكر عم إمام كثيرًا ماذا يفعل لكى يسدد ديونه لا يعرف كيف قادته أفكاره لكى يستقر على فكرة واحدة وهى سرقة فرع البنك الصغير الموجود فى آخر الشارع الذى يوجد فيه متجره.

ولكن كيف له أن يسرق وهو الذى لم يخطر بباله فى حياته أن يكون لصًا فى يوم من الأيام. وحتى لو فكر ، وخطط، واستقر على تنفيذ تلك الفكرة المجنونة، فكيف سيحصل على سلاح، وهو الذى أصبح لا يمتلك قوت يومه، وحتى لو توفر لديه المال، فمن أين يشترى هذا السلاح، وحتى لو عرف مكانًا، فكيف يستخدمه، وحتى لو عرف كيف يستخدم، فحارس البنك ومعظم الموظفين يعرفونه إما بالاسم، أو بالملامح لأنه كان يمر عليهم كل يوم ويلقى السلام.

فكر عم إمام طويلاً، وهداه تفكيره إلى عدة أشياء:

أولاً – سرقة البنك فى وسط الأسبوع حتى تكون الخزائن ممتلئة بالأموال. ثانيًا – أنه سوف يخفى وجه بكولون (البنطال الشفاف) الذى ترتديه ابنته ليلى فى الحضانة. ثالثًا – وهو الأهم وهى مشكلة السلاح، تذكر عم إمام أن فى متجره مسدسًا من لعب الأطفال، وهو مسدس يُملأ بالماء، ويشبه إلى حد كبير المسدسات الحقيقية.

وفى يوم الثلاثاء وهو يوم التنفيذ، راقب عم إمام البنك من بعيد، فاقتحم عم إمام البنك وهو يرتدى ذلك القناع من كولون ليلى على وجهه، ويمسك فى يده المسدس، وهو يصرخ فى الموظفين يأمرهم أن ينبطحوا أرضًا.

انبطح الجميع على الأرض، بما فيهم رجل الأمن الوحيد الموجود فى البنك، وأمرهم عم إمام بأن يضعوا أيديهم خلف ظهورهم، وقام هو بالاستيلاء على

مسدس رجل الأمن، والذى لم يدر ما يفعل بــه، ووضـــعه فـــى إحـــدى أصـــص الزرع،حتى لا تنطلق رصاصة خطأ فتقتل أو تصيب أحدًا من المـــوظفين الطيبـــين الذين يعرفهم جيدًا.

وأرغم إمام الموظف الذى يجلس بجانب الخزنة بأن يملأ الكـــيس الأســـود الذى كان فى حوزة عم إمام بالمال، ولكنه طلب من الموظف طلبًا غريبًا، وهـــو أن يعد الموظف رزم المال حتى تصبح خمسين ألفًا من الجنيهات فقط، وألا يضع فـــى الكيس كل المال الموجود فى الخزينة، وكانت هذه الخمسين ألفًا هى كل ديونه التـــى يرغب فى سدادها.

ونبه هذا الطلب الغريب رجل الأمن الذى رفع رأسه عاليًا لينظر خلسة لهذا اللص القنوع المقنّع، عساه أن يجد وسيلة يستطيع بها السيطرة على هـــذا اللـــص. وكانت مفاجأة كبيرة لرجل الأمن حينما رأى مسدس الماء فى يده عم إمـــام، وأخـــذ الرجل يدقق النظر فى المسدس ، وتأكد أن المسدس ليس حقيقًا، ولعـــل هـــذا كـــان واضحًا لأن هذا المسدس لم يكن به مكان خزينة الرصاص المعتادة.

فقام رجل الأمن من رقدته، وأمسك بعم إمام وسيطر عليـــه ورفـــع قنـــاع كولون ليلى من على وجهه، وأخذ منه المسدس حتى لا يغـــرق أرضـــية البنـــك بالماء !!!

سكة سفر

استيقظ عم رضا من نومه كعادته عند أذان الفجر. صلى الفجر فى المسجد الملاصق لبيته، ثم توجه – كعادته كل يوم – إلى الكشك الذى يمتلكه بجوار محطة مصر فى ميدان رمسيس.

فتح عم رضا أبواب الكشك لاستقبال الزبائن، وكان أول زبائنه مجندًا فى الجيش يطلب شراء علبة سجائر كليوباترا، ثم توالى وصول الزبائن واحدًا بعد الآخر. هذا يريد أن يشترى مياه غازية ليطفئ بها ظمأه، وهذا يريد حجرًا لولاعة السجائر، وهذه تريد محفظة بلاستيكية لتضع فيها بطاقتها الجامعية.

وكان عم رضا يعرف الموطن الذى جاء منه الزبون من طريقة لبسه،فهذا الرجل الذى يلبس الطاقية الطويلة من المنوفية، بينما ذلك الرجل الذى يلبس أخرى أقل فى الطول من الشرقية، وهذا الرجل الذى يلبس التلفيحة ويمسك فى يده زجلة (عصا غليظة) هو صعيدى من أسيوط، وهذا الذى يلبس جلبابًا أبيض ويلبس طاقية بيضاء هو أسوانى يسكن بالقرب من السد العالى.

بل كانت لهجات الزبائن مرشدًا له عن موطنهم، فهذا الذى يحول الجيم إلى ديم من سوهاج، وهذا الذى يمط الكلام فى آخره من بورسعيد، وهذا الذى يضيف حرف الواو إلى نهاية الكلمة من الإسكندرية.

وكان يعرف من حديث الزبائن مع بعضهم البعض أثناء تناول المياه الغازية، أو تدخين سيجارة، أو أثناء كلامهم فى التليفون مع أقاربهم أسباب سفرهم من القاهرة إلى باقى المحافظات. فهذا المجند يسافر ليلحق بوحدته العسكرية فى الجيش، وهذا الطالب يسافر للالتحاق بكليته فى جامعة أسيوط؛ لأن درجاته لم تؤهله للالتحاق بجامعة القاهرة، وهذه السيدة البسيطة تسافر إلى إحدى المحافظات

لتقابل أحد الدجالين كى يفك السحر الذى منع ابنتها من الزواج، وهذه الأسرة تسافر إلى الإسكندرية للتصييف هربًا من حر القاهرة، وهذا الشاب ... وهذه الفتاة ....

كان عم رضا قانعًا بداخله أن الحياة ما هى إلا رحلة، تختلف تفاصيل هذه الرحلة من شخص إلى آخر، حسب رزقه، ومنصبه، وموطنه، وتعليمه، و ... إلخ. وهذه الرحلة لها نهاية محددة وهى الموت. قد تختلف النهاية فى تفاصيلها، ولكن النهاية واحدة، فهذا يموت غريقًا، وهذا يموت فى حريق، وهذا يموت تحت عجلات القطار، وذاك تصدمه سيارة، ولكن الموت الأجمل والأكثر وقارًا هو أن يموت الإنسان فى سريره.

لا يعرف عم رضا لماذا تجمعت هذه الأفكار فى ذهنه جملة واحدة فى ذلك اليوم، فهذه الأفكار تقسم نفسها، تزوره إحداها حينما يكون مزاجه معتدلاً، وتزوره الأخرى حينما تكون حالته النفسية ليست على ما يرام.

ولعل الذى جعل هذه الأفكار تتجمع فى رأسه دفعة واحدة، هى إحدى القصائد الدينية التى استمع إليها فى صباح ذلك اليوم، بصوت الشيخ ياسين التهامى أحد المنشدين الدينيين الرائعين، والتى كان يقول أحد أبياتها "بادر قبل أن تغادر". والمعنى الذى كان يقصده الشاعر هو أن تبادر بالتوبة قبل أن تغادر هذه الدنيا، ولكن المعنى الذى استقر فى ذهن عم رضا، هو أن يبادر بأخذ قرار حقيقى فى حياته؛ لأن عم رضا أدرك أن حياته كانت عبارة عن رحلة يومية مملة من بيته فى حى الجمالية إلى كشكه عند محطة مصر.

واستمر على هذه الوتيرة لمدة أربعين عامًا، لم يغير من حياته شيئًا قط، حتى قرار الزواج رفض التفكير فيه حتى لا يغير نمط حياته الذى اعتاد عليه ، رفض كل فرص العمل التى عرضت عليه فى الخليج، بل إنه كان يرفض مغادرة القاهرة إلى أى محافظة أخرى.

أدرك عم رضا أن حياته لم تكن مملة فقط، بل كانت النموذج المثالى للملل فى كل العصور. فالناس من حوله وأمام عينيه تسافر هنا وهناك، تركب الصعب، وتخوض التجارب التى قد تنجح أو تفشل، ولكن نجاحها أو حتى فشلها كان يعطى لحياتهم معنى، بل يدفعهم الفشل إلى النجاح، أو حتى إلى فشل آخر. المهم هو المحاولة فى حد ذاتها، تلك النعمة التى حرم عم رضا نفسه منها طيلة حياته.

وفجأة قرر عم رضا أن يبدأ الآن، وقف أمام كشكه لا يدرى بالضبط ما القرار الذى يجب عليه أن يتخذه، وفجأة دخل إلى محطة القطار، ورأى قطارًا يغادر المحطة فجرى وراءه، حتى لحق به وركبه، لا يعرف أين يذهب هذا القطار، ولم يسأل أحدًا عن وجهة القطار، ولكنه قرر السفر إلى أين وإلى متى ليس هذا المهم، المهم هو أنه قرر، وهذا يكفيه.

ورم خبيث

أحس الأستاذ سعيد بنفس الألم يدق رأسه مرة أخرى ولكن هذه المرة أشــد من كل مرة، إن رأسه يكاد ينفجر من الألم والوجع وتكاد عظام جمجمتــه وجبهتــه تتفتت من أثر هذا الألم الشنيع، فقرر فى نهاية الأمر – وبناء على نصيحة زوجتــه – أن يذهب للطبيب ليرى سبب هذا الألم الذى لا يتحمله بشر.

ذهب أستاذ سعيد إلى الطبيب بعد حجز مسبق. وبدأ الطبيب فى توجيه عدة أسئلة للأستاذ سعيد عن بداية شعوره بهذا الألم. وعن عدد نوبات الألم التى تداهمــه فى اليوم الواحد، وعن الفارق الزمنى بين كل نوبة وأخرى، وعن التاريخ المرضى لأسرة الأستاذ سعيد، وتفاصيل أخرى جعلت الشك يفتك برأس الأستاذ ســعيد، مــع العلم أن رأسه لم يعد يتحمل أى مشاعر إنسانية أخرى ولاسيما الشكوك والوساوس.

ولكن نظرة الطبيب الحانية وكلماته المشجعة كانت بردًا وسلامًا على قلــب الأستاذ سعيد، الذى وعد الطبيب فى نهاية المقابلة بالقيام بالأشــعة المطلوبــة فــى أقرب فرصة، ولكن تأكيد الطبيب على أن يقوم الأستاذ سعيد بإجراء هــذه الأشــعة غدًا على الأكثر أعاد تلك الوساوس لرأس الأستاذ سعيد مرة أخــرى، ولكنــه هــم بالانصراف حتى لا يشغل الطبيب عن مرضاه الآخــرين الــذين ينتظرونــه فــى الخارج.

ذهب الأستاذ سعيد إلى مركز الأشعة لاستلام الأشعة فى الميعــاد المعتــاد ومضى فى طريقه إلى عيادة الطبيب وهو يحاول التفكير فى أى شيء آخــر غيــر حالته الصحية حتى لا تعاوده هذه الوساوس.

ووصل إلى العيادة مبكرًا، وكان أول من حضر من المرضى، وجلس فــى مقعده ينتظر حضور الطبيب الذى وصل بعد ربع ساعة. وبعد خمسة دقــائق مــن وصول الطبيب نادت الممرضة على الأستاذ سعيد للدخول لحجرة الكــشف، فقــام

الأستاذ سعيد من مقعده وهو يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى ولكنه استجمع شجاعته وطرق باب حجرة الكشف وسمع صوت الطبيب يسمح له بالدخول.

أخذ الطبيب الأشعة من أستاذ سعيد وأخذ يتأملها فى هدوء وتركيز شديد، والأستاذ سعيد ينظر إليه وعلى وجهه علامات القلق والرعب، وأطال الطبيب النظر إلى الأشعة تحت الأضواء القوية، والأستاذ سعيد ينظر إليه منتظرًا التشخيص.

وفى النهاية نظر الطبيب إلى الأستاذ سعيد نظرة تنم عن تعاطف إنسانى مخلوط بحزن وألم، وبدأ الطبيب حديثه إلى الأستاذ سعيد أن الأعمار بيد الله وأن الأمل فى الله موجود دائمًا وأن المرض ابتلاء واختبار من الله لعبادة المؤمنين، قضت هذه المقدمة على الأستاذ سعيد نفسيًا، ولكنه تظاهر بالإنصات لكلام الطبيب، الذى أكمل كلامه وأوضح للأستاذ سعيد أنه مصاب بورم خبيث فى المخ فى مراحله الأخيرة، وأظهرت الأشعة أن الورم يكاد يطبق على المخ من كل الجهات. وأن حالة الأستاذ سعيد تعنى ببساطة أنه لم يبق من عمره أكثر من ثلاثة شهور لن يستطيع الطب أن يفعل فيها شيئًا له نظرًا لتأخر الحالة.

انتهى الطبيب من كلامه والأستاذ سعيد ينصت إليه وعيناه متحجرتان فى مكانهما، وكأن ما يمر به هو حلم أو بمعنى أكثر وضوحًا كابوس سوف يصحو منه قريبًا. لم ينطق الأستاذ سعيد سوى جملة واحدة لخصت الموقف بأكمله حينما قال "لا حول ولاقوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه رلجعون".

خرج الأستاذ سعيد من عيادة الطبيب وهو لا يدرى أين يتجه، ومشى فى الشوارع على غير هدى حتى اقترب منتصف الليل، وتذكر أن زوجته وأولاده ينتظرونه على أحر من الجمر ليعرفوا نتائج هذه المقابلة مع الطبيب. واحتار الأستاذ سعيد هل يخبر زوجته وأولاده بحقيقة مرضه أم يخفى عليهم تلك المصيبة، ولكنه قرر فى النهاية أن يخبرهم حتى يستعدوا لذلك اليوم الذى سوف يفارقهم فيه ذلك الفراق الأبدى الذى لا لقاء بعده.

وصل الأستاذ سعيد إلى بيته فى الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وصدق توقعه فقد وجد زوجته وأولاده ينتظرونه، وكلهم ينظرون إليه بعين العتاب على تأخره، وأخذوا يسألونه بلهفة عما قاله الطبيب ولكنه لم يرد عليهم وطلب كوبًا من الماء، وبعد أن أخذ رشفة واحدة من الماء؛ بدأ يسرد عليهم ما حدث بينه وبين الطبيب، وأثناء حديثه بدأ يرى دموع زوجته وأولاده الصغار تغرق وجوههم فى صمت وحزن وانكسار، وبعد أن أنهى حديثه شككت زوجته فى نتائج التحليل، وشككت فى هذا الطبيب.

وأخذت الزوجة والأبناء يلحون عليه أن يعيد هذه الأشعة فى مكان آخر ويعرضها على طبيب من "الأطباء الكبار" كما يحلو للبعض أن يسميهم ، فذهب الأستاذ سعيد إلى طبيب آخر، ثم طبيب ثالث، وأكدوا جميعًا نفس التشخيص.

اجتمع الأستاذ سعيد بزوجته وأولاده، وبدأ حديثه معهم بأن الموت حق، وأن القبر حق، وأن لكل شيء بداية ونهاية، وإذا لم يأت الموت اليوم، فسيأتى غدًا، وإذا كان قد نجا من سهم الموت أمس ليصيب غيره، فغدًا ينجو غيره ليصاب هو بسهم الموت. وتجمدت زوجته وأولاده فى مقاعدهم والدموع تتساقط من عيونهم فى حزن هادئ ربما من نبرة الإيمان التى طالما غلفت صوت الأب، أو لإحساسهم بالعجز أمام سطوة المرض وبعد أن انتهى الأستاذ سعيد من كلامه أستأذنهم أن يخلدوا إلى النوم.

وبعد أن نام الجميع، قام الأستاذ سعيد من فراشه وذهب إلى حجرة السفرة، وأخذ معه ورقة وقلم، وجلس يكتب وصيته لمعرفته بحديث النبى الذى يقول أن على كل إنسان أن يكتب وصيته.

وبدأ الأستاذ سعيد وصيته بكتابة التاريخ ١٩٩٥/٣/٨ ، ثم تلى التاريخ بالآية الكريمة: "كل نفس ذائقة الموت" وبدأ الوصية إنه فى يوم السبت

١٩٩٥/٣/٨، أوصى أنا سعيد مصطفى عبدالغفار ... وبدأ الأستاذ سعيد بسرد بنود الوصية، ثم ختمها بـــ إنا لله وإنا إليه راجعون.

ومضت الأيام وأصبحت كتابة الوصية عادة عند الأستاذ ســعيد ، بعــد أن يخلد الجميع إلى النوم يذهب إلى حجرة السفرة ، ويبدأ فى كتابة الوصية الجديــدة، بعد أن يمزق الوصية التى كتبها فى الليلة السابقة. لم تختلف أى وصية جديدة عــن الأخريات، ولكن ثمة رابط نفسى تولد بين كتابة الوصية وبين تمسك الأستاذ ســعيد بالحياة.

وفى أحد الأيام، وبعد أن خلد الجميع إلى النوم، توجه الأستاذ ســعيد إلــى حجرة السفرة، ومعه ورقة وقلم، وبدأ كالعادة فى كتابة الوصية بادئًا بالتاريخ، ولكنه ما إن بدأ فى كتابة التاريخ حتى توقفت يده عن الكتابة، وتسمرت عيناه على الأرقام التى تشكل هذا التاريخ فاليوم هو ٢٠٠٧/٦/١٤ !!!

الزهايمر

لم يعد الدكتور ماجد يصدق ما يحدث لوالده المستشار عاصـــم الرشـــيدى، وكيف يمكن لمرض أن يحول هذا الرجل الشامخ القوى الحاسم إلى خيال إنسان، لا يتذكر حتى اسمه أو أسماء أولاده، أو عنوان بيته، أو أى معلومة صغيرة تحتاج إلى التذكر.

اشتهر عاصم بك برجاحة عقله، وشكيمته، حتى اشتهر بين القضاة، وعرف بين الناس بالحكمة، والنزاهة. ولكن بعد خروجه من الخدمة بعـــد وصـــوله لـــسن التقاعد تبدلت أحواله، فقد بدت عليه علامات غريبة مثل النـــسيان، وعـــدم إيجـــاد الكلمات المناسبة ليضعها فى مكانها الصحيح.

وتدهورت حالته بسرعة، فأصبح البكاء بدون سبب هو سمته منذ الـــصباح وحتى المساء. وأحيانًا يصرخ ويقول "أنا ما معملتش حاجة". وأحيانًا أخرى يخطـــر له أن يفتح باب الشقة، ويخرج إلى الشارع وإذا أراد أحد منعه؛ فإنه يثـــور ثـــورة عارمة ويعلو صوته ويتشنج.

وأصبح يصحو كل يوم بمزاج يختلف عن اليوم الذى سبقه، فأحيانًا يـــشكو من ألم فى أسنانه، وأحيانًا أخرى يشكو من ألم فى ظهره. وعلـــى الفـــور لابـــد أن يسارع ابنه الدكتور ماجد بإعطائه أى دواء مسكن.

ليس هذا فحسب بل عليه أن يتظاهر بأنه يدلك ظهره وهو يـــصرخ ويتـــألم ويبكى، ثم يأخذ علبة الدواء أو المرهم ليحتضنها، ويظل طيلة النهار يخفيهـــا عـــن الجميع ثم ينسى أين وضعها، فيبدأ فى البكاء مرة أخرى، ويظل كل من فى البيـــت يبحث عنها ربما لساعات طوال حتى يهدأ مرة أخرى.

وأحيانا يصحو من نومه ليسأل عن نقوده، ويصر على الذهاب إلى البنك، مع أنه لم يعد يفرق بين القرش والجنيه، ويظل يبكى ويصرخ حتى يعطيه الدكتور ماجد بضعة جنيهات.

وأصبح لا يعرف الفرق بين الناس، فأحيانًا ينادى على الدكتور ماجد ابنه بكلمة "بابا"، وأصبح يكلم أحفاده ويناديهم بأسماء إخوته وأخواته الذين رحلوا عن هذه الدنيا.

ومن المشاهد التى أبكت الدكتور ماجد طويلاً مشهد والده وهو يقبل يد الخادم حتى يفتح له باب الشقة فى منتصف الليل ليخرج إلى الشارع.

وأسقط فى يد الدكتور ماجد وأصبح لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، فقد فكر فى أن يرسل والده إلى دار للمسنين، ولكن قلبه لم يطاوعه أن يلقى بوالده فى هذه السن فى إحدى دور المسنين، وخاصةً أن والده يعانى من أمراض الشيخوخة الأخرى. أو هل يطلب من بقية إخوته أن يتحملوا المسئولية معه، ولكن الكل تخاذل ورفضوا بكياسة استقبال والدهم وتعللوا بصغر مساحات شققهم، واخبروا ماجد أنه هو أكبرهم، وعليه أن يتحمل الموضوع إلى نهايته إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

وأصبح الدكتور ماجد وأسرته محبوسين فى المنزل، فإن ذهب هو إلى عمله، مكثت زوجته وأحد أبنائه حتى يمنعوه من الخروج إلى الشارع، وتحولت حياتهم إلى سجن كبير، تحول فيه عاصم بك إلى السجان والمسجون فى ذات الوقت.

وفى مساء أحد الأيام اتصل الدكتور إسماعيل صديق الدكتور ماجد؛ يبشره بوجود طبيب مصرى عاد من توه من الولايات المتحدة بعد أن حصل على درجة الدكتوراه فى علاج الزهايمر.

لم يتردد الدكتور ماجد واصطحب والده إلى عيادة هذا الطبيب، الـذى قـام بفحص والده فحصًا شاملاً، وأوضح للدكتور ماجد أن العلاج الجديد للزهايمر لـيس عن طريق تناول الأدوية والعقاقير، ولكنه عبارة عن مجموعة من تمرينات الـذكاء واللغة والتذكر، يقوم به أحد المساعدين المتخصصين لهذا الطبيب تحـت إشـرافه. ولكن الطبيب حذر الدكتور ماجد من استعجال النتائج، التى توقع أن تكون بطيئـة؛ نظرًا لكبر سن الأب، والأمراض الأخرى التى يعانى منها.

واستبشر الدكتور ماجد خيرًا بكلام الطبيب. وبدأ مساعد الطبيب فعلاً هـذه الجلسات التى كانت تستمر لمدة ساعتين يوميًا، وأصبح عاصم بك يتقدم ولكن ببطء شديد، وأصبح يثور على كل من حوله كعادته، ولكن بشكل أقـل مـن ذى قبـل، وتحسنت أخلاقه مع الجميع، وإن كان التقدم فى استعادة الذاكرة بطيء للغاية.

وكان الدكتور ماجد يبكى فى أحيان كثيرة حينما يرى مساعد الطبيب يعنف عاصم بك لأنه نسى جدول الضرب، أو أنه نسى أحد الأناشيد التى حفظهـا وكـان أهمها "قطتى صغيرة، اسمها نميرة!".

ومرت سنة كاملة، وأحس الدكتور ماجد أنه استطاع إلى حد ما الانتـصار على المرض. وجاء يوم الاختبار الذى سيقرر الطبيب بنفسه – ولـيس مـساعده – مدى التقدم الذى حققه عاصم فى خلال هذه السنة، وكان هذا الاختبار ينقسم فعليًـا إلى ثلاثة اختبارات صغيرة فى ثلاثة مجالات: الحساب ، واللغة ، والتذكر.

وبدأ الطبيب باختبار الحساب، وفشل عاصم بك فـى أن يجيـب علـى أى سؤال من الأسئلة العشرين فشلاً ذريعًا.

وبدأ القلق يظهر على وجه الطبيب؛ لأن عاصم بك فشل فى أبسط العمليات الحسابية، وانتقل الطبيب إلى الاختبار الثانى، وكانت النتيجة لا تختلف عن الاختبار الأول، وجاء موعد الاختبار الثالث، وكان التوتر قد بلغ من الطبيب مبلغًـا، وكـان

هذا الاختبار وهو اختبار التذكر عبارة عن عدة أسئلة بسيطة مثل اذكر اسم حيوان؟ اذكر اسم نبات؟ اذكر اسم أى مكان تحبه؟ فشل عاصم فى الإجابة على أى من هذه الأسئلة، حتى وصل إلى السؤال الأخير، وكان السؤال يقول: اذكر أى كلمة تخطـر على بالك؟ وفكر عاصم بك طويلاً ، وأخذ يقدح زناد فكره والكل ينظر إليـه، ثـم وضع القلم على الورقة ليكتب الإجابة ، وكتب الإجابة، وهى كلمة واحـدة كانـت مفاجأة للجميع، فقد كتب كلمة "الزهايمر"!!!

شـــرود

انزوى أحمد ببذلته الحمراء فى ركن من أركان الحجرة المظلمـــة الـــضيقة التى تنبعث منها رائحة الموت، فغدًا يوم الإعدام، غدًا يتوقف قلب أحمد عن الحياة، ويتوقف عقله عن التفكير فى أى شيء، غدًا سوف يرحل إلى عالم الموت المجهول بما يكتنفه من غموض، وما يحيط به من ظلام.

اللحظات تمر ثقيلة تارةً وتهرول تارةً أخرى، وهو لا يشعر بالزمن، كل ما يفكر فيه هو الموت، كيف سيكون إحساسه عندما يلتف حبل المشنقة حـــول عنقـــه وساعتها ...؟؟؟! أراد أن يصلى ركعتين لله ولكن قدماه لا تحملاه، أراد أن يـــصلى وهو جالس ولكن لسانه لا يتحرك، يحس أنه يصلى ولكن كيف لا يعرف ؟؟!

ثم أخذته سنة من النوم مر أمامه فيها شريط حياته سريعًا ولكن هذا الشريط بدأ يمر بطيئًا متثاقلاً حينما بدأ فى تذكر تلك الليلة المشئومة التى اكتشف فيها خيانة زوجته سامية مع أعز أصدقائه سمير.

وبدأ يتذكر تلك اللحظات الرهيبة التى بدت وكأنها طعنات خنجـــر تمـــزق أوصال فكره، تذكر كيف عاد من عمله متعبًا مكدودًا يشتاق إلى دفء البيت وحنان زوجته سامية التى تزوجها بعد قصة حب عنيفة، ولكنه وجدها تخونه مـــع ســـمير، جن جنونه، لم يدر بنفسه وهو يستل السكين ويطعنه طعنـــةً قاتلـــة ويطعنهـــا هـــى طعنات وطعنات حتى تحولت جثتها إلى أشلاء.

واليوم بل الليلة هى آخر ما له فى هذه الدنيا آخر الذكريات، آخر الأنفـــاس، آخر الخطوات، فغدًا سوف يكون من أهل عالم آخر.

الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل ؟؟؟! لم يتبق أمامـــه ســـوى خمـــس ساعات، الدقائق تمر وطعم الموت يلتصق بحلقه شيئًا فشيئًا، لم يعد يتـــنفس ســـوى

رائحة الموت، يا لها من لحظات مُرة ثقيلة على نفس الإنسان، وكلما حاول أن يفكر فى أى شيء آخر جذبه الموت من تلابيبه كى لا يبتعد بفكره إلى شيء سواه.

ومرت الساعات وهى لا يدرى هل هو نائم أم مستيقظ، حى أم ميت، جسد أم روح، حقيقة أم مجرد ذكريات إنسان، ثم طرق عليه باب الحجرة حارسه عم رمضان ذلك الرجل الطيب الذى بكى بمجرد أن رآه وأخذ يتلو آيات القرآن ويطلب من أحمد ألا ينسى أن ينطق بالشهادتين، ولكن أحمد رآه ولم يره فهو يحس وكأنه فى كابوس مزعج يريد أن يصحو منه ولكنه لا يستطيع.

أخذه الحارس إلى حجرة الإعدام وفى الطريق مشى فى ممر طويل وكأنه الطريق بين الحياة والموت.

ثم قابله شيخ من مصلحة السجون أخذ يعظه ويطلب منه أن يذكر الله وأن ينطق بالشهادتين، وأخذ أحمد يردد الشهادتين ودموعه تسيل وتغسل وجهه من كل ملامح الحياة ، وترسم على وجهه صورةً للموت.

ثم أدخله حارسه إلى حجرة الإعدام حيث قابله عشماوى بملامحه الصارمة ومعه مساعده، وبدأ أحمد يحس بأن كل شيء فى هذه الدنيا قد تحول إلى مجموعة أو كومة من الخيالات المشوشة، وفى هذه الأثناء قام عشماوى ومساعده بربط يديه وراء ظهره وكذلك رجليه بعد أن أوقفاه على "الطبلية" – وهى تلك الأرضية الخشبية التى تنفتح كى تسقط جثة المحكوم عليه بالإعدام.

وقام عشماوى بلف حبل المشنقة حول عنق أحمد الذى وقف مذهولاً ينظر إلى الفراغ الذى طوق اللحظات الباقية من حياته، ثم قام عشماوى بجذب الحبل فاختنق أحمد وأخذ يقاوم ولكن يديه ورجليه لا تتحركان.

وبدأت عينيه فى الجحوظ، وتوقف الدم ولم يعد يصل لمخه، وبدأت شرايين مخه تنفجر الواحد تلو الآخر، وبدأت خلايا مخه تتمزق الواحدة تلو الأخرى، ولم

تعد الأنفاس تتردد داخله وأخذ يحس بطعم الموت الحقيقى فى حلقه، وبعد لحظــات قليلة مات أحمد وقام عشماوى بجذب الذراع الحديدى الموجود فى حائط الحجــرة، وانفتحت الأرضية الخشبية من تحت جثة أحمد وسقط جثة على الأرض وارتطمــت رأسه بالأرض وأحدثت دويًا شديدًا، ساعتها انتبه أحمد أنه ما زال ينظر من شــباك بيته منتظرًا صديقه سمير لكى يذهبا معًا لكى يتقدم أحمد لجارته سامية طالبًا يــدها للزواج !!!!

رحيـــل

ما إن سمع ممدوح صوت أمه على التليفون تخبره أن زوجتـــه وفـــاء قـــد وضعت ولدًا حتى ألقى السماعة من يده، وترك أمه تتكلم فى التليفون، وهرول إلـــى باب مكتب المحاسبة الذى يعمل فيه لكى يرى زوجته وابنه الذى طال انتظاره.

نسي ممدوح أن لديه سيارة وأخذ يجرى فى الشارع كالمجنون وفى داخلـــه مشاعر عديدة وفى رأسه خيالات وأفكار غير واضحة المعالم، وتذكر كيـــف أنـــه انتظر عشر سنوات كاملة لكى يرى ابنه هذا، وكيف أن الأطباء أخبروه أن زوجتـــه تعانى من عيب خلقى وأن الجنين لن يمكث فى أحشائها حتى يكتمل.

وتذكر كيف تكرر هذا الكلام على لسان الأطباء، وتذكر كيفَ طلبـــت منـــه زوجته أن يتزوج بأخرى، وتذكر كيف ثار فى وجهها عندما طلبت منه هذا؛ لأنه لا يستطيع أن يتزوج بأخرى لأنها المرأة الوحيدة التى أحبها.

وتذكر كيف صبرا الاثنان معًا حتى حدثت المعجزة الإلهية وحملت زوجتـــه وظل الجنين فى بطنها تسعة أشهر كاملة، وكيف أنهما اتفقا على أن يسمياه محمـــدًا إذا كان ولدًا، حتى يتشرف ابنهما بحمل اسم النبى صلى الله عليه وسلم وأن يسمياها هندًا إذا كانت بنتًا.

كل هذه الخواطر والذكريات والأفكار مرت فى رأس ممدوح بغير انتظـــام، وهو ما زال يجرى فى الشارع والناس تنظر إليه، ثم أبصر ممدوح باب المستـــشفى عن بعد ولكنه توقف فجأة وتنبه إلى شيء وهو أن أمه قد أخبرته أن زوجتـــه قـــد وضعت ولدًا ولكنها لم تخبره إن كان هذا الولد حيًّا أم ميتًا خاصةً أن أمـــه كانـــت تبكى.

هل كانت دموع الفرح أم دموع الموت؟؟؟! وتجمعت الدموع فـــى عينيـــه بسرعة، وتاه عقله للحظات ولكنه استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وجرى حتى بلغ باب المستشفى.

صعد ممدوح درجات السلم بسرعة حتى وصل إلى الدور الخـــامس حيـــث توجد غرفة زوجته، وجرى نحو غرفتها وتسمرت أقدامه، لأنه وجـــد أمـــه تبكـــى خارج الغرفة، حاول أن يستفهم منها ما حدث ولكنها لم تستطع أن تنطق بكلمة مـــن شدة البكاء، فاندفع ممدوح وفتح باب الغرفة فوجد الممرضة تحمـــل طفـــلاً جمـــيلاً يتحرك، ولكنه حينما التفت للسرير وجد زوجته جثةً هامدة فوق السرير. وهذا مـــا حاولت أمه أن تخبره به!!!

ليست مختلفة

استقل حسام القطار المتوجه للإسكندرية لكى يتسلم عمله الجديد كمهندس بميناء الإسكندرية.

وبحث حسام عن مقعده فوجده، وجلس بجوار النافذة ينظر إلى البشر وعلى وجهه ابتسامة سخرية، وأحس أن هناك راكبًا آخر قد جلس بجواره، ولكنه لم ينظر إليه لأنه سيكون إنسانًا عاديًا لا يختلف عن هؤلاء البشر فى محطة القطار.

واستمر حسام ينظر من النافذة ، ويشاهد المسافرين الذين وصلوا لتوهم وكيف استقبلهم أهلهم بالترحاب والقبلات، وكيف أنه صار واحدًا من هؤلاء المسافرين ولكنه لا يتوقع أن يجد أحدًا فى انتظاره ؛لأن الإسكندرية مدينةً غريبة عنه لا يعرف فيه أحدًا.

وانطلقت صفارة القطار تعلن بدء الرحلة، ولكن حسام كان ما زال ينظر إلى البشر، وانطلق القطار وحسام يحملق فى الحقول التى تمتد على جانب القطار، وهو يحس أن اللون الأخضر يطهر عينيه من مظاهر القبح التى تعج بها القاهرة.

وفجأة سمع صوتًا رقيقًا يسأله عن الساعة، ونظر حسام إلى جانبه ليرد على السائل، فوجد فتاةً جميلة ذات شعر أسود بلون الليل البهيم، وعينين سوداوين لهما بريق غريب، فنظر حسام لها واجمًا، فأعادت عليه السؤال وانتبه إليها وأخبرها أنها مازالت السابعة وخمس دقائق، وأنه ما زال هناك حوالى ساعتين ونصف على بلوغهم الأسكندرية، ثم سكت حسام.

ونظر حسام مرة أخرى من النافذة، ولكنه بدأ يشعر بجاذبية شديدة ناحية هاتين العينين الجميلتين، ولكنه لم ينظر إلى هذه الفتاة خوفًا من الوقوع فى حب جديد.

وفجأة سألته الفتاة عن بلدته فأخبرها أنـــه مـــن القـــاهرة ولكنـــه مـــسافر للإسكندرية لكى يتسلم عمله الجديد كمهندس فى ميناء الأسكندرية، وسألها هو عـــن وجهتها، فأجابته بأنها سوف تزور بعض أقاربها فى الإسكندرية.

وبدأ كلٌ منهما ينجذب إلى الآخر ولا يدرى أحدهما ما سر هذا الانجـــذاب. وسألها حسام عن اسمها، فأجابته بأن اسمها "حسناء" وكانت كذلك.

وشعر حسام معها بألفة غريبة، إحساس بالحنان والرقة والجمـــال، وبـــدأت هى الحديث معه وكأنها تعرفه منذ آلاف السنين وكأنها إيـــزيس وهـــو أوزوريـــس القرن العشرين.

ولم يعد حسام ينظر من النافذة ليشاهد جمال الطبيعة؛ لأنهـــا قمـــة جمـــال الطبيعة، فعيناها جزء من السماء وشعرها خيوط من الليل. ولم يـــستطع حـــسام أن ينظر إلى شيء آخر، وظل حسام واجمًا ينظر إليها دون أن ينطق بكلمـــة، وكانـــت هى تتحدث عن نفسها.

ثم أفاق حسام على سؤالها له عن سبب عمله فى الإسكندرية مع أنـــه مـــن سكان القاهرة، فأجابها بأنه مر بمشكلة عاطفية دمرت حياته، وجعلته يكره القـــاهرة ويكره كل مكان بها يذكره بتلك الحبيبة الخائنة التى فضلت عليه عجوز ثرى يملـــك الشقة والسيارة ورصيد كبير فى البنك، وأخبرها بأنه تعلم أن يؤمن أن زماننا هـــذا هو زمن المال وزمن اللامشاعر، وأن زمن الرومانسية والحب والمشاعر قد ولـــى وذهب مع الريح.

لم يستطع حسام أن يجد سببًا واحدًا جعله يتكلم مع امرأة يقابلها لأول مـــرة بكل هذه الصراحة، ولكنه أدرك أن هذه الفتاة الجميلة مختلفة عن كل الفتيات، إنـــه يحس أنها قلب ينبض بالحب والمشاعر، ولكن هناك طيفًا من الحزن فـــى عينيهـــا الجميلتين، ونبرة من الأسى واضحة فى صوتها.

ووجد نفسه يسألها عن حياتها الماضية، ولكنه لم يفكر للحظة واحدة هل له الحق أن يسألها عن حياتها الماضية، ولكن هذا التردد لم يعـرف طريقًـا لعقلـه لا يعرف لماذا، ولكن كل الذى يعرفه أنه سألها.

وبدأت هى الأخرى تحدثه عن حياتها بصراحة، وأخبرته أنها تـسكن فـى الإسكندرية وليس فى القاهرة كما أخبرته، وأنها كذبت عليه لأنها لم تثق فيـه فـى بداية الأمر، وأخبرته أنها مرت هى الأخرى بقصة حب فاشلة جعلتها لا تثـق فـى أى رجل، وأنها مرت بأزمة نفسية حادة نتيجة لهذا الحب الفاشل، فقررت أن تعيش حياتها، وأنها اتخذت قرارًا مصيريًا غير حياتها، ولكنها لم تخبره هذا القرار.

ثم استمرا فى الحديث، كل واحد منهما يحدث الآخر عن نفسه، وعن حياته الشخصية دون أن يدرى أى واحدٍ منهما كيف يثق فى الآخر وهو لم يعرفه سـوى من دقائق معدودة.

وجد كلٍ منهما أنه منجذب إلى الآخر لا يعرف أى منهمـا كيـف و لمـاذا حدث هذا الانجذاب الشديد. نظر حسام إليها وأخذ يحدق فى وجهها وأخـذت هـى الأخرى تنظر إليه، ثم أفاقا على صوت مضيفة القطار تأتى لهما بالشاى الذى طلباه منذ قليل.

تناول حسام كوب الشاى ونظر من النافذة مـرةً أخـرى، وأخـذ يرتـشف الشاى، ويفكر فى هذه الفتاة وفى نفسه هو، هل يمكن أن يكون هذا حبًّـا مـن أول نظرة ؟! هل يمكن أن يكون مجرد إعجاب مؤقت براكبة أخرى فى قطـار سـوف يتلاشى فى خضم الحياة بعد انتهاء الرحلة؟

وأخذ يتساءل فى نفسه، هل يمكن أن يكون هذا الإعجاب مجـرد محاولـة يائسة لنسيان تجربة حب فاشلة؟ وفى نفس الوقت كانت حسناء هى الأخرى تفكـر فى هذا الشاب الحزين، وتسأل نفسها، هل يمكن أن يكون هذا حبًّا من أول نظرة؟

وقالت لنفسها ما الحب سوى رجل يلتقى بامرأة ويعجب بها ويحبها من أول نظرة، لأن الحب فلسفة بلا قواعد ولا أسس وهو عاطفة لا تعرف العقلانية.

ولكن عقلها استوقفها، وأخذت تفكر كيف ستقول له الحقيقة، وكيف سيكون رد فعله؟!؟!

وانتهى حسام من شرب الشاى وكان قد اتخذ قرارًا بأن يصارحها بأنه أحبها منذ وقعت عيناه عليها، وأنه يريد أن يرتبط بها لأن الحب ما هو إلا التقاء قلبين تسبقهما عينان فى غمرة الحياة، وأنه وجد فيها القلب الصافى الذى ربما يعوضه عن خيانة حبيبته الأولى التى سعت للمال وتزوجت بالعجوز المتصابى.

وفى نفس الوقت كانت هى الأخرى تحس ما يحس به، ولكنها لا تعرف كيف ستخبره بالحقيقة.

والتفت إليه فوجدته ينظر إليها، وقالت له إنها نسيت أن تقول له شيئًا مهمًا، فأخبرها هو أنه يريد أن يقول لها شيئًا أهم من أى كلام يمكن أن تقوله هى، فأرادت أن تتكلم ولكنه وضع يده على شفتيها، وأخبرها أنه أحبها منذ وقعت عيناه عليها، وأنه يريد أن يتزوجها.

أرادت هى الأخرى أن تقول إنها أحبته منذ رأته، ولكن فى هذه اللحظة وصل القطار إلى محطة سيدى جابر، وبدأت تستعد للنزول فحملت حقيبتها ولكنه أمسك يدها وسألها عن رأيها فنظرت إليه نظرة مليئة بالحزن، وأخبرته أن زوجها العجوز ينتظرها فى المحطة وحينها أدرك أنها ليست مختلفة عن حبيبته الخائنة.

الســــتر

لم يفهم عم رمضان ما قاله له الطبيب. حاول الطبيب تبسيط المــصطلحات العلمية المعقدة لكى يفهم عم رمضان أنه مصاب بمرض السرطان اللعين، وأن هذا المرض قد استشرى فى جسده وأنه من وجهة النظر الطبية لم يعد أمام عم رمضان سوى ثلاثة شهور فى هذه الدنيا.

أصاب الشلل تفكير عم رمضان ووجم لفترة ولم يسمع ما قاله الطبيب بعــد ذلك، وكان أول شيء فكر فيه عمر رمضان هو أولاده الــستة وزوجتــه الطيبــة الصابرة سنية.

غادر عم رمضان المستشفى وفى طريقه للمنزل انهمرت دموعه على خده ليس خوفًا من الموت، ولا رفضًا لقضاء الله، ولكن حزنًا على مــصير أولاده بعــد وفاته، وماذا سوف يكون مصير أمهم خاصةً أن سبل العيش قد ضاقت بهــم منــذ زمن طويل، ولكن صبر الست سنية وإيمان عم رمضان وقناعة أولاده كانت دائمًــا حصنهم أمام هجمات اليأس والقنوط الشرسة ،المتكررة.

تذكر عم رمضان ابنه الكبير أسامة الذى ما زال طالبًا بالسنة الأولى بكليــة الطب، وكيف يمكن أن يتحطم مستقبله، وتذكر عمله كخفيــر لمــصنع البلاســتيك بمكافأة شهرية، وكيف كانت زوجته تنصحه بضرورة الحصول على عمــل دائــم، وكيف كان يخبرها دائمًا أنه يجب على الإنسان أن يسعى وراء رزقــه كالعــصفور ينتقل من مكان لآخر.

مشى عم رمضان فى الشوارع على غير هدًى حتى خطــرت لــه فكــرة شيطانية بأن يقوم بسرقة خزانة المصنع الذى يعمل فيه، عاد عم رمضان وعلامات الحزن تكسو وجهه وسألته زوجته عما ألم به فأخبرها بما حدث فــسمعته زوجتــه وهى واجمة والدموع تنهمر على وجنتيها، وتوسلت إليه ألا يفكر فى سرقة المصنع

لأن هذا سوف يغضب الله، ولكنه أقنعها أن هذا هو الطريق الوحيد للنجاة وحتى لا يتشردوا بعد وفاته، وأخبرها أنه ينوى سرقة خزانة المصنع الليلة في الساعة التاسعة.

حينما اقتربت الساعة من الثامنة والنصف قام عم رمضان فتوضأ ونوى أن يصلى ركعتين لله عساه أن يساعده ويستره فى الدنيا والآخرة، وبدأ عم رمضان الصلاة وبدأت دموعه تنهمر حتى وصل إلى السجود الأخير، وأطال عم رمضان فى سجوده وبدأ يدعو الله أن يستره ولا يفضحه وبدأ بكاؤه يعلو حتى ضاعت الكلمات وما زال يردد "اللهم استرنى ولا تفضحنى"، "اللهم استرنى ولا تفضحنى" ، "اللهم استرنى ولا تفضحنى" ، "اللهم استرنى ... " ومات عمر رمضان وهو يطلب الستر فى سجوده لأن الله أراد له الستر!!!

لقـــــاء

طرق أسامة الباب وفتحت له الخادمة وقادته إلى حجرة الـصالون، جلـس أسامة ينتظر شريكه الأستاذ عادل، وعادل هذا رجل طيب القلب، على خلق، وبعـد لحظات دخل عادل حجرة الصالون، ورحب بشريكه أسامة وأصر أن يتناول أسامة الغداء معه هو وزوجته إيمان.

وبعد لحظات ظهرت إيمان لكى ترحب بذلك الضيف الذى لم تره من قبـل، وما أن رأت أسامة حتى تسمرت فى مكانها، ولم يكد أسامة يراها حتـى جحظـت عيناه من شدة المفاجأة ولكنهما تمالكا نفسيهما وسلم كل منهما على الآخر.

جلس أسامة مرتبكًا لبضعة دقائق ولكنه سرعان ما تغلب على ارتباكه كـى لا يلاحظ عادل ارتباكه، وبدأ يتجاذب أطراف الحديث معه ومع إيمان ولكـن فـى تحفظ شديد، ثم اعتذر أسامة عن تناول الغداء مع عادل وإيمان مدعيًا أن تذكر فجأة موعدًا له مع صديق قديم.

وبعد أن نزل أسامة إلى الشارع، ومشى كالتائه، إنها إيمان نعم إنها إيمـان، ومضى أسامة فى طريقه حتى وصل إلى الكورنيش حيث كان يلتقى بإيمـان منـذ أكثر من خمسة عشر سنة، وجلس وغلبته الذكريات وتذكر كيف بدأ حبه لإيمان منذ نعومة أظافره، منذ كانا يسكنان معًا فى نفس البيت القديم بحي الجمالية.

وتذكر كيف كبر حبهما حتى حصلا الاثنان على الثانوية العامـة والتحقـا بالجامعة: هو بكلية الهندسة وهى بكلية الآداب، وتذكر كيف بدأ الخُطاب يتوافـدون على منزل إيمان، وكيف رفضت هى العريس تلو الآخر حتـى انتهـى هـو مـن دراسته، وأخبرها أنه سوف يسافر إلى ألمانيا حيث يستطيع أن يعمل ويدرس ويعود لها بعد عام أو عامين كي يتزوجا ويحققا حلمهما.

وتذكر كيف أرسل له والده خطابًا بعد ستة أشهر من سفره يخبره فيه بأن إيمان قد تزوجت بعد أن أجبرها أهلها على قبول عريس شاب ثرى على خلق وكان هذا العريس هو عادل أو المهندس عادل شريك أسامة الحالى.

وبعد هذا الخطاب قرر أسامة ألا يعود إلى مصر، وبقى فى ألمانيا حتى حصل على الدكتوراه، وكون ثروة كبيرة ولكن شوقه للأهل والأصدقاء غلبه فى النهاية، وعاد إلى مصر منذ ما يقرب من سنة حيث تعرف على المهندس عادل وكونا معًا مصنعًا لصناعة الزجاج.

وطوال هذه السنة كان عادل مثالاً للإنسان المثقف المتدين صاحب القيم والمبادئ، وتذكر أسامة كيف حاول عادل عدة مرات أن يدعوه لمنزله ولكن فى كل مرة كان أسامة يرفض لأنه بطبعه خجول يعيش حياةً كلها عمل فقط.

وبعدما عاد أسامة لمنزله لم يستطع أن ينام، فالذكريات تهاجمه من كل جانب، وحبه القديم ما زال حيًّا نابضًا وانتظر أسامة حتى الصباح واتصل بمنزل عادل وهو يعلم أن عادل فى المصنع وليس فى البيت، وردت عليه إيمان والتى بدت مرتبكة لا تعرف ماذا تقول لأسامة واستمرت المكالمة لأكثر من ساعة، وتعددت المكالمات لمدة أسبوع كامل.

انساق كل منهما وراء الحب القديم ومشاعرهما التى لم تمت، وأخبرها أسامة أنه لم يتزوج لأنه لا يستطيع أن يتصور أن يحب امرأة أخرى غيرها وأخبرته هى أن أهلها أجبروها أن تتزوج عادل، ولكنه إنسان طيب لم يجرح مشاعرها مرة واحدة منذ أن تزوجته.

وفى كل مكالمة كان الحب القديم يعود شيئًا فشيئًا حتى أصبح واقعًا لكل منهما.

كان أسامة يرى عادل كل يوم في مصنعهما، وكان الإحساس بالخيانة يقتله كيف يخون هو هذا الإنسان الطيب المخلص، وفي الطرف الآخر كانت إيمان تحس بنفس المشاعر ولكن الحب القديم كان كالإعصار الذى عصف بحياة كلٍ منهما.

وتواعد الاثنان أن يلتقيا في يوم الخميس الساعة السابعة في الكازينو الذى كانا يتقابلان فيه أثناء الدراسة في الجامعة.

وكان هذا اللقاء هو اللقاء الثاني لهما وجهًا لوجه. وقبل يوم الخميس عاش كلٍ منهما لحظات صعبة مريرة لإحساسهما بأنهما يخونان عادل. ولم ينم أسامة في هذه الليلة وتصارعت في داخله مشاعر كثيرة متناقضة، هل يقابلها؟ هل يعتذر ولا يذهب؟ هل يتفقان على الزواج بعد أن تترك عادل؟ كيف يكون مصير مصنعه، أو بمعنى أوضح مستقبله إذا حدث هذا؟ هل هذا حلال أم حرام؟ هل حبهما تحول إلى خطيئة؟

وبدأ أسامة يحس أن رأسه سوف تنفجر وتتناثر هذه الأفكار على الأرض، ولكنه بعد تفكير طويل ومرير في نفس الوقت قرر ألا يقابلها وكتب لها عبارةً واحدةً في ورقةٍ صغيرة كتب فيها "لم أستطع أن أخون عادل"، وذهب إلى الكازينو لكي يتركها مع الجرسون لكي يسلمها لها وبالتالي ذهب قبل موعده بنصف ساعة كي يترك هذه الورقة.

وفي الطريق إلى الكازينو تصارعت بداخله أفكار أخرى هل هذا هو الحل الصحيح؟ ماذا سوف يكون رد فعل إيمان؟ ولكنه في النهاية مضى في طريقه حتى وصل إلى الكازينو وجلس على مقعده المعهود، ونادى على الجرسون وطلب منه أن يسلم هذه الورقة إلى سيدة سوف تأتي في السابعة وتجلس إلى هذه المنضدة،ولكن الجرسون قال له أن هذه السيدة قد حضرت منذ قليل وتركت له ورقة صغيرة كتبت فيها عبارة واحدة "لم أستطع أن أخون عادل"!!!

نهاية وبداية

وقف جلال يتأمل مياه النيل تحته وهو فوق كوبرى الجلاء، ويرى فيها طريق النجاة، لم يعد هناك فى الحياة ما يعيش له، لقد ضاع حبه، وخانته حبيبته، وتزوجت المال وداست على حبهما بأقدامها.

وقف جلال ينظر إلى يمينه تارةً وإلى شماله تارةً أخرى كى يجد اللحظة الحاسمة التى يلقى بنفسه فيها فى النيل ولا ينقذه فيها أحد، وخاصةً أنه لا يعرف السباحة.

كان فى شوق إلى تلك اللحظة الحاسمة التى يتخلص فيها من آلامه وأوجاعه، ولكن الكوبرى كان يعج بالناس بالرغم من أن الساعة قاربت الثانية عشرة ليلاً، ولعل حرارة الجو كانت السبب وراء بقائهم خارج منازلهم حتى هذه الساعة المتأخرة.

وتذكر جلال للحظات لقاءاته مع نجلاء وكيف كانت الدنيا بالنسبة لهم جنة لأن كل منهما كان من سكانها، ومر بخاطره كيف كان ينجح فى الكلية ليس من أجل النجاح فقط ، ولكن لكى يسعدها ويقترب من حلمه فى الزواج منها.

وتذكر كيف تقدم لها عريسها العجوز المتصابى طالبًا يدها وكيف أن أهلها ضغطوا عليها لكى تقبل هذا الرجل الثرى. ولكن جلال يرى أنها خانته لأنها كان يجب عليها أن تقاوم وتقاوم ولكن فات الأوان لأن اليوم هو يوم زفافها، اليوم يفقدها إلى الأبد.

اقتربت الساعة من الواحدة بعد منتصف الليل وبدأ الكوبرى يخلو من المارة، ونظر جلال يمينًا ويسارًا فلم يجد سوى رجل كبير فى السن وزوجته يتمشيان فوق الكوبرى يتأبط كل منهما ذراع الآخر ، فانتظر جلال حتى يمر هذا

الزوجان اللذان اقتربا من السبعين، ومرا من وراء جلال وسمعهما جلال يتبـادلان كلمات الحب والشوق، ودمعت عينا جلال وتذكر كيف كان يقول مثل هـذا الكـلام لنجلاء وكيف كانت تبادله نفس هذه الكلمات، ولكن كل هذا ضـاع يـوم ضـاعت نجلاء، يوم أسلم حبهما الروح.

مر الرجل وزوجته وعندها حانت اللحظة الحاسمة التى يتخلص جلال فيها من أحزانه وهو يدرك تمامًا أنه سوف يكون من أهل النار، ولكن النار التى يعـانى منها أعمت بصره عن كل شيء.

وقف جلال على سور الكوبرى، وبدأ يردد الشهادتين لكن الكلمـات كانـت تخرج ثقيلة من فمه وكأن حروفها التصقت بحلقه، وبدأت عيناه فى الجحوظ وهـم يلقى بنفسه، ولكن فى نفس اللحظة وجد يدًا تمسكه، من ساقه فالتفت فوجد الرجـل العجوز الذى مر منذ قليل هو زوجته.

واندهش جلال ونهر الرجل وطلب منه أن يتركه ولكن الرجل قاطعه وقال له بأنه لا يوجد شيء فى الدنيا يساوى حياة الإنسان؛ لأن حياة الإنسان هى ملـك لله وهو وحده الذى يملك أن ينهيها فى الوقت الذى يريد.

وطلب الرجل من جلال أن ينزل من فوق السور ويخبـره بالـسبب الـذى جعله يريد أن ينهى حياته بهذه الطريقة، ونزل جلال من على سور الكوبرى وأخبر الرجل بحكايته، فابتسم الرجل ابتسامة حانية وأخبر جلال أنه مر بـنفس التجربـة ووصل به اليأس إلى درجة الانتحار وحاول بالفعل أن ينتحر ولكنـه فـشل، وفـى اللحظة التى حاول فيها الانتحار أدرك مدى جمال الحياة وبشاعة المـوت، وقـرر ساعتها أن يبدأ حياته من جديد.

تزوج آمال وهى زوجته التى معه، والتى ابتسمت لجلال حين نظر إليهـا، وأخبره أنه أحبها وتزوجها منذ أكثر من أربعين سنة، ومنذ زواجـه وهـو يتـذكر

اللحظة التى حاول فيها الانتحار كل يوم ويسخر من نفسه، ويؤكد لنفسه أن الحــب موجود ولا تقضى عليه تجربة فاشلة، ثم سلم الرجل على جــلال بعــد أن شــعر باقتناعه وسلمت عليه زوجته ثم تركاه.

ثم وقف جلال ينظر إلى المياه ويتعجب من الفرق بين أفكاره الآن وأفكــاره منذ دقائق وتذكر نجلاء، وتذكر الله الذى بعث إليه هذا الرجــل، وابتــسم ابتــسامة ساخرة، ونظر للمياه ثم مضى فى طريقه.

للخيانة وجهان

كاد التفكير أن يقتل سامى ويشل عقله، فالشيطان يجذبه من ناحية، وضميره يجذبه من الناحية الأخرى وهو ممزق بين هذا وذاك.

ورجع بذاكرته إلى الوراء وتذكر يوم وفاة والدته، وزواج والده بعد وفاتها من جارتهم الحسناء سهير، وكانت هى الأخرى أرملة مات زوجها العجوز بعد زواجهما بعامين.

وتذكر كيف بدأت سهير هذه تراوده عن نفسه، وتطلب منه أن يكون صديقها، ويخون والده، ويمارس معها الفاحشة، لأنها على حد قولها سئمت ذلك الصنف العجوز من الرجال، وتريد أن تجرب الشباب فاختارته هو.

ولكن سامى – على الرغم من بخل والده وعدم اكتراثه به – قد تربى تربية جيدة عرفته الحلال من الحرام، والفرق بين الفضيلة والرذيلة، يشهد له الجميع بالأخلاق والاستقامة.

وفى أثناء استغراقه فى التفكير دخلت عليه سهير وبدأت محاولة جديدة من محاولاتها وتطلب منه ما يغضب الله، وتذكره ببخل والده، وتعده بالمال الوفير الذى سوف يمكنه من الظهور بالمظهر المناسب أمام زملائه فى الجامعة.

وأخذ سامى يذكرها بالله والجنة والنار، ولكنها امرأة لعوب لا تعرف الله، مات ضميرها وأصبح كل ما يهمها هو إرضاء ملذاتها الجسدية.

ولكن سامى نهرها، وترك لها البيت وخرج وقرر الذهاب إلى رأفت صديقه الوحيد الذى يمكن أن يأمنه على مثل هذا السر.

وفى الطريق إلى رأفت استغرق سامى فى التفكير مرة أخرى، وبدأت نفسه تأمره بالسوء وأنه يجب عليه أن يرضخ لهذه المرأة اللعوب، ويتخلص من بخل والده ولن يخسر شيئًا، لأن الفضيلة والأخلاق أصبحت عملات قديمة انتهى تداولها فى هذا الزمان، ويستطيع أيضًا أن يظهر أمام زملائه الذين أطلقوا عليه لقب "سامى يونيفورم" لارتدائه بنطلون وقميص لا يتغيران طوال السنة. كان بخل والده هو تلك السياط الذى يلهب ظهر طموحاته.

وظل سامى مستغرقًا فى التفكير حتى وصل إلى البيت الذى يسكن فيه رأفت، وكان رأفت يسكن فى حجرة صغيرة فوق السطوح بحكم غربته فى القاهرة، لأن أهله يسكنون فى الإسكندرية.

واستقبله رأفت بالترحاب، وعرف رأفت من وجه سامى أن هناك ما يضايقه، فسأله عما يضايقه فأخبره سامى بالحقيقة كاملة. وأخبر سامى رأفت أنه على وشك الانسياق وراء غرائز هذه المرأة الشيطان حتى يحصل على المال، ويتخلص من هذا التفكير الذى يقتله قتلاً بطيئًا.

ولكن رأفت كان صوت ضمير سامى الذى كان يخبو ويتلاشى، فأخذ رأفت يذكره بمبادئه وأخلاقه، وأنه يجب عليه أن يقاوم هذه المرأة اللعوب.

وعاد سامى إلى رشده وسأل رأفت النصيحة وكيف يمكن له أن يتخلص من الشيطان الذى يوسوس فى أذنه بأنه ليس بنبى الله يوسف الذى صد امرأة العزيز، فنهره رأفت وذكره بما قد يحدث لوالده لو علم أن زوجته تخونه مع ابنه.

واقترح رأفت على سامى أن يمكث خارج البيت كل يوم حتى يعود والده من العمل الساعة السادسة، وبذلك يتجنب المحاولات الرخيصة لتلك المرأة، ولكن بقيت مشكلة وهى أن سامى لا يذهب لكليته يوم الأحد من كل أسبوع لأنه الإجازة الرسمية للكلية.

وهنا طرأت فكرة لرأفت، واقترح على سامى أن يقضى يوم الإجازة فى حجرة رأفت فى هذا اليوم لأن رأفت يذهب لزيارة أحبائه من الأهل والأقارب فى القاهرة يوم الأحد من كل أسبوع ودمعت عينا سامى حينما رأى هذا الإخلاص وتذكر الخيانة مجسدة فى زوجة أبيه.

وعلت وجه سامى ابتسامة سخرية حينما تذكر كيف كانت المرأة تكره رأفت وتطلب من والده أن يمنع رأفت هذا من دخول منزلهم، أو حتى معرفة سامى لأنه سوف يفسد أخلاقه.

وفعلاً استجاب سامى لنصيحة صديقه المخلص، ونجحت تلك الخطة الملائكية فى مواجهة المحاولات الشيطانية لزوجة أبيه.

وفى أحد أيام الأحد أحس سامى بالتعب والغثيان وعدم قدرته على مواصلة الاستذكار، فقرر العودة للمنزل على أن ينام مباشرة حتى يتجنب زوجة أبيه.

وعاد سامى إلى المنزل وفتح الباب ولم يحس به أحد، فسمع صوت ضحكة زوجة أبيه تنبعث من حجرة النوم، فأدرك سامى أن والده قد عاد من عمله مبكرًا اليوم.

وهمّ سامى بإغلاق الباب، ولكن عيناه تسمرت على والده وهو يصعد السلم، ونظر سامى إلى باب حجرة النوم ثم نظر إلى والده، ثم كرر هذا عدة مرات، وجحظت عيناه من الدهشة، فسأله والده عما ألم به، ولكن سامى لم يجب والده، فصعد والده درجات السلم مسرعًا، وجرى مسرعًا نحو حجرة النوم وتبعه سامى، وفتحا الباب وهناك كانت المفاجأة حيث وجد سهير بين أحضان رأفت.

وساعتها أدرك سامى لماذا نصحه رأفت بالابتعاد عن المنزل، وساعتها أدرك كيف خدعته زوجة أبيه بتظاهرها بكراهية رأفت، وساعتها أدرك سامى من هم أحباب رأفت الذين كان يزورهم يوم الأحد من كل أسبوع !!!

كـــابوس

دخل طاهر محطة مصر لكى يستقل القطار المتجه للصعيد، ولكنه كان كالعادة لا يمتلك ثمن التذكرة وسوف يضطر للتسطيح فوق القطار كعادة كل المفلسين، وبدأ الناس يتزاحمون على أبواب القطار، وطاهر ينظر إليهم بعين الحقد تارة وبعين السخرية تارة أخرى.

بعد امتلاء القطار بالناس وجلوس كلٍ فى مكان، تسلق طاهر سطح القطار واستلقى على ظهره وبدأ القطار فى التحرك، وفتح طاهر الجريدة التى كانت معه وبدأ يقرأ الأخبار، ثم وضع رجلاً على الأخرى وهو يقرأ.

أخذ طاهر يقلب صفحات الجريدة الواحدة تلو الأخرى حتى وقعت عينه على إعلان عن الهجرة لأمريكا، وبدأ طاهر يستغرق فى التفكير فى الهجرة لكنه لم يخطر بباله من أين له التذكرة أو جواز السفر، ولكنه نظر إلى السماء الزرقاء فوقه والتى لا يفصله عنها شيء.

وبدأ يتخيل نفسه يمشى فى شوارع أمريكا التى طالما رآها فى الأفلام الأجنبية وكيف سوف تتدفق الدولارات بين يديه وكيف سيرتاد الحانات، تحيط به الحسناوات، وكيف أن أول شيء سوف يفعله حينما يعود لمصر هو شراء تذكرة قطار درجة أولى وربما عشرة أو عشرين تذكرة قطار له وحده كى يعوض أيام الشقاء والتسطيح.

وبدأت الدنيا تضحك وتبش فى وجهه، بل أخذته الأحلام بعيدًا وكيف أنه سيصبح مليونيرًا يمتلك المال والسيارات، ثم تذكر أن هناك سيجارة فى جيبه عليه أن يشعلها حتى تكتمل نكهة الأحلام وأخرج السيجارة من جيبه وحاول النهوض من استلقائه ليشعلها ليكمل حلمه، وحينما نهض من نومته أطاح أحد الكبارى برأسه!!!

لا حيلة فى الخلق

خرج شريف من مدرسته الثانوية وهو مهموم لا يرى الطريق تحت قدمه وهو يتذكر سخرية زملائه من قصر طوله الواضح وتكاد كلمة "نص شبر" تصم أذنه، بل أنه وضع يده على أذنيه حتى لا يسمعها.

مشى على غير هدًى لا يعرف هل يعود للمنزل، هل يتمشى قليلاً، هل يذهب ليجلس قليلاً على شاطئ النيل حتى يذهب انفعاله، هل ينتحر ويتخلص من كل هذه الآلام، هل وهل وهل وخمسون هل تدق رأسه بقوة، فكلما مشى فى طريق شاهد أمامه نظرات السخرية أو على الأقل التعجب والدهشة من قصر طوله.

أخذ شريف يسأل نفسه، هل أنا الذى خلقت نفسي؟ بالطبع لا، هل يوجد أكمل مما خلق الله؟ هل للإنسان دخل فى خلقه أو خلقته أو حتى فى اختيار أسرته أو بيئته التى يعيش فيه؟ أسئلة كثيرة تزاحمت فى رأسه أسئلة كثيرة الإجابة عليها هى لا. استغفر شريف ربه ومضى فى طريقه، وبينما يعبر الطريق رأى رجلاً كفيفًا يعبر الطريق ولكنه زلت قدمه فوقع فجرى شريف نحوه وساعده على النهوض وأخذ الرجل ينفض ملابسه، وناوله شريف عكازه، فأخذ الرجل العكاز من شريف وشكره ومضى فى طريقه.

وسمع شريف الرجل وهو يدعو له بطول العمر، أراد شريف أن يطلب منه الدعاء له بطول القامة، ونظر شريف لهذا الرجل الكفيف، ونظر لنفسه وتأمل قصر طوله وابتسم ابتسامة سخرية ومضى فى طريقه.

اللــــه

جلس أحمد على أحد الكراسى التى تمتد على طول كورنيش الإسـكندرية. إنها السادسة صباحًا حيث الهدوء والسكينة، وخلو الكورنيش من المارة.

أخرج أحمد قلمه وورقته وأراد أن يكتب قصيدته الجديدة إنه يحس أنه فـى حالة إلهام وخلق ولكن لا يعرف عن ماذا يكتب، لقد استهلكت كـل الموضـوعات: (الحب ، الكراهية ، الغدر ، الهجران ... إلخ).

أخذ ينظر حوله هل يكتب عن القمر، عن البحر عن النجوم ، عن الـسماء؟ كل هذه الموضوعات قتلت شعرًا، ولاكتها الألسن والأقلام.

استمرت حيرته وهو ينظر من حوله، إنه يخاف أن يتفلت الشعر من بـين يديه وتموت موهبته، ركبته الهموم وتلاعبت برأسه ، وأخذ ينظر حوله مرة أخرى إلى البحر ، إلى السماء، إلى وجوه الناس القليلة الموجودة فى الشارع إنه يرى شيئًا فى كل مظاهر الكون من حوله إنه الشيء الوحيد الذى يراه بوضوح، إنــه الـشيء الوحيد الذى مهما وصلته الأقلام، فلن تنتهى صفاته، إنه وجود الله .. الله ..

نعم الله هو مصدر الإلهام، وأصل كل الحياة، باعث الأمل، وينبوع كل مـا هو جميل، إنه حبيب من لا حبيب له، وصديق من لا صديق له، الأول قبل وجـود أى شيء والباقى بعد فناء كل شيء ، والباقى بعد فناء كل شيء، إنه الله ... الله ... الله موضوع الشعر الذى لا ينتهى ولا ينضب.

ساعتها بدأ قلمه فى الكتابة على الورق.

النتيجة

اليوم نتيجة الثانوية العامة، نهض عم فهمى من نومه مبكرًا، اليوم نتيجة ابنه مصطفى.

تناول عم فهمى إفطاره، ثم لبس ملابسه وخرج قاصدًا مدرسة مصطفى، وكلما اقترب من مدرسة مصطفى ازدادت ضربات قلبه، وأوشكت دموعه أن تفضحه ولكنه أخذ يدافعها.

دخل عم فهمى المدرسة وبدأت خطواته تتثاقل وهو يرى فناء المدرسة ممتلئًا عن آخره بالطلبة وأولياء أمورهم.

ثم سمع صوت أحد المدرسين ينبه على الجميع بالسكون التام لأنهم سيبدأون فى إعلان النتيجة فى الميكروفون، وعم المكان صمت رهيب وبدأ أحد المدرسين فى إعلان الأسماء وبدأت صرخات الفرح بالنجاح، وصرخات الألم بالرسوب تقطع الصمت الرهيب.

ورأى عم فهمى الأهالى يعانقون أولادهم الناجحين والبعض الآخر يواسون أولادهم الذين لم يكتب لهم النجاح، واختلط الحابل بالنابل حتى لم يعد عم فهمى يسمع الأسماء ولكنه أصاخ بسمعه وفجأة سمع المدرس فى الميكروفون يقول مصطفى فهمى عبدالعزيز ٩٨% الأول على الإدارة التعليمية.

وهنا صرخ عم فهمى صرخة مدوية، وتجمع الأهالى من حوله يباركون له، ولكن المفاجأة جعلت دموعه تتساقط سيولاً حتى استعجم لسانه، فظن الجميع أن الفرحة لجمت لسان الرجل ولكنهم لم يعرفوا أن مصطفى ابنه قد مات الأسبوع الماضى!!!

هنا أشعر بالأمان

خرجت اليوم من مستشفى المجانيب، وكان هذا آخر عهدى بأرق الناس شعورًا، وأطيبهم قلبًا ألا وهم أصدقائى من الذين يقال عنهم أنهم مجانيب وهم أصدقائى مصطفى وبهجت وصالح. لا أستطيع أن أنسى دموعهم وهى تودعنى وأنا أغادر المستشفى.

نسيت أن أعرفكم بنفسى اسمي يوسف عبدالحميد، وأنا الابن الرابع فى أسرة الحاج عبدالحميد تاجر الموبيليا بالحسين، وأخوتى هم شوقى آخر الأكبر، وأخى مجدى الأخ الثانى ثم أختى أمينة، أما والدتى فقد ماتت وأنا طفل صغير رحمها الله رحمة واسعة.

وإذا أردتم أن تعرفوا ظروف دخولى لهذا المكان ألا وهو مستشفى المجانيب، فسوف أسرد عليكم باختصار قصتى مع دنيا العقلاء وسكانها من العقلاء.

وأنا طفل صغير كانت تنتابنى نوبات صرع شديدة على فترات غير متساوية، وكان والدىّ يشفقان على حالى ويعاملانى برفق ورحمة.

وكانت أول لطمات الحياة على وجهى هى وفاة والدتى الطيبة وأنا فى العاشرة من عمرى. لم يعد هناك فى الدنيا من يعطف على سوى والدى المسكين، لأن أخى شوقى وأخى مجدى تجردا من إنسانيتهما وكانا يعاملاننى بكل قسوة وفظاظة وكأننى السبب فى مرضى هذا.

أما أختى أمينة فلم أكن أشعر بوجودها لأنها تزوجت فى الإسكندرية وكانت تزورنا فى كل سنة مرة واحدة، وكانت كلما حدثتها عما يفعله بى شوقى ومجدى من إهانة وضرب وأحيانًا تعذيب كانت تتهمنى بالتهويل.

وكانت اللطمة الثانية هى إصابة والدى بشلل فى أطرافه الأربعة أفقده النطق، وأصبح أبى جثة ميتة ليس فيها شيء حى سوى قلبه وضميره.

وفى يوم أسود سمعت مجدى وشوقى يتحدثان عن الميراث، فاقترح شوقى على مجدى أن يعطيا أمينة مبلغًا من المال بدلاً من نصيبها فى الميراث وهما على يقين تام أنها سوف ترضى بذلك لأن زوجها مجرد موظف بسيط وكثيرًا ما كانت تشتكى لوالدنا من ضيق ذات اليد، وكان الوالد يساعدها بكل عطف ورحمة.

ولم يبق أمامهم سواى، فصور لهما الشيطان حلاً جهنميًا وهو إيداعى فى مستشفى المجانيب، وبهذا يتخلصان من وجودى وينفردان بميراث أبى، وكانت هذه بداية مأساتى مع الدنيا ومع سكانها من العقلاء الذين يعبدون المادة، ويستخدمون نعمة العقل فيما لا يرضاه الله.

وفى صباح اليوم الثانى فوجئت بسيارة مستشفى المجانيب تدخل شارعنا والتف حولها صبيان الشارع.

خرج من السيارة تمرجيان تدل ملامحهما على القسوة وعلى الخبرة فى معاملة أمثالى من المجانيب، وصعد هذان الرجلان السلم وفى يديهما جلباب المجانيب الشهير يسبقهما شوقى ومجدى، وكنت ساعتها أساعد والدى فى تناول الدواء، وحينما رأيتهم سقطت زجاجة الدواء من يدى، لأنى لم أكن أتصور أن الخسة والنذالة والقسوة سوف تصل بهما إلى هذه الدرجة.

وهجما على وألبسانى هذا الجلباب بالقوة، وأخذت أصرخ واستنجد بوالدى الذى لم يستطع أن يفعل شيئًا سوى البكاء وصرخات مكتومة لا تسمعها ضمائر إخوتى، ونزلوا بى إلى الشارع حيث تبعنى الأطفال الذين بدأوا ينادوننى بالمجذوب.

وهناك فى مستشفى المجانيب، قابلت زملائى من المجانيب مصطفى وبهجت وصالح، وكان الثلاثة قلوبًا تفيض بالحب والإخلاص.

وعرفت أنني لست الوحيد العاقل فمصطفى دخل المستشفى لأن زوج أمه كان يكرهه فأقنع والدته بأنه مريض عصبي.

أما بهجت فادعى الجنون لكي يهرب من دفع نفقة زوجته وأولاده المتأخرة وإلا سيسجن.

أما صالح فهو من أقصى الصعيد ولكنه هرب من بلدته لكي يدخل المستشفى برغبته بل ودفع رشوة لأحد الأطباء لكي يدخل المستشفى لكي يهرب من الثأر الذي يلاحقه.

ومع هؤلاء الثلاثة وبقية زملائي من المجانيب قضيت ثلاث سنوات كاملة.

وفي خلال هذه السنوات الثلاث اقتنع الأطباء بأنني لست مجنونًا وقرروا أن أخرج من المستشفى لأنني عاقل مائة في المائة، وبذلت جهودًا كبيرة كي يسمحوا لي بالبقاء مع زملائي من نزلاء المستشفى ولكنهم رفضوا.

وكان يوم خروجي من المستشفى يومًا مشهودًا لا أستطيع أن أنساه، بكى زملائي من نزلاء المستشفى وخاصة أصدقائي الثلاثة مصطفى وصالح وبهجت وبكيت معهم لأن هؤلاء الثلاثة كانوا أسرتي بعد وفاة والدتي ومرض والدي وما فعله بي إخوتي.

خرجت من المستشفى وقررت أن أتوجه إلى منزلنا لكي أرى والدي المريض، وعندما وصلت إلى منزلنا لم أجده ووجدت عمارة كبيرة مكانه فسألت البواب عن منزلنا وأخبرني أن صاحب المنزل الحاج / عبدالحميد قد توفي منذ عام، وأن أولاده مجدي وشوقي قد هدموا المنزل القديم وبنوا هذه العمارة الشاهقة مكانه.

وعلمت أنهما قد اشتريا محلاً كبيرًا فى شارع سليمان باشـــا، وقــررت أن أذهب لأقابلهما وقلبى يتمزق من داخلى لوفاة والدى ولكى واسيت نفسى قائلاً بأنـــه كان رجلاً طيب القلب مؤمنًا بالله ، وسوف يكون من أهل الجنة.

وصلت إلى ذلك المحل الكبير، وما إن رآنى شوقى حتى جذبنى من ذراعى بقسوة، ونادى على أخى مجدى الذى جاء مسرعًا من داخل مخزن المحــل، وأقنــع كل منهما الآخر أننى هربت من المستشفى وقاما بتقييدى فى أحد المقاعــد، وقامــا بالاتصال بالمستشفى لكى يبعثوا بسيارة المجانيب لكى تأخذنى وفــشلت محــاولاتى لإقناعهما بأن المستشفى قد أفرجت عنى بعد أن اقتنع الأطباء بأننى ســليم العقــل، ولكن أخى شوقى أقسم بأنه مستعد أن يفعل أى شىء حتى أعود لهذا المكان.

واستطعت أن أغافلهم وأفك قيدى وأهرب وجروا ورائى وأخذوا يــصيحون بأننى مجنون، ولكننى جريت بسرعة ولم يستطع أحد أن يلحق بى.

وهمت على وجهى حتى قادتنى أقدامى إلى مقابر أسرتى فى السيدة نفيسة، وهناك وقفت على قبر أمى وبكيت وشكوت لهم الدنيا وفجأة خطرت لى فكرة فقمت بزحزحة الحجر الكبير الذى يغطى القبر وقمت بإزالة التراب الذى يغطيه وفتحــت التربة وكانت حديثة البناء فوجدت جثتى أبى وأمى كلتاهما مكفنة، وهذا مــا رأيتــه لأن الظلام كان يغطى المكان وتمددت بجانبهما وساعتها أحسست بالطمأنينة لأننـــى هنا أشعر بالأمان!!!

طيـــــار

كانت سهام تحلم منذ طفولتها بأن تتزوج من طيار، فقد كان لشخصية الطيار فى أفلام السينما بريق خاص، من حيث الوجاهة والوسامة، وأنه يزور كل بلاد الدنيا.

تحقق كل هذا الآن والشخص الجالس الآن مع والدها فى غرفة الصالون – وكما أخبرتها والدتها – يعمل طيارًا. فلم تهتم سهام بالسؤال عن عمره، أو عائلته، أو ثقافته، أو حتى اسمه، كل ما اهتمت به أنها سوف تتزوج صاحب تلك الوظيفة الجذابة.

نادت عليها أمها لترى العريس وتجلس معه فى وجود والدها، وخرجت سهام من حجرتها، وحياؤها يشدها إلى غرفتها مرة أخرى، ورغبتها فى رؤية العريس الطيار تدفعها دفعاً إلى خارج الحجرة.

ولم يخب ظنها، فما أن وقعت عيناها على العريس، حتى وجدته شابًا وسيمًا، فكاد قلبها يطير من بين أضلعها، وبعد المقدمات المعروفة فى تلك المناسبات، سأل والدها الشاب عن الطريقة التى عرف بها ابنته؛ فأجابه بأنه كان يراها كل يوم من مقر عمره المواجه لمسكنهم، فأعجب بها، وأنه سأل عن الأسرة وعن أخلاق سهام، ولم يسمع إلا كل ما هو طيب، وأنه استخار الله ، ووجد أن هذه هى الفتاة التى يريدها زوجةً له، ولمًا لأولاده فى المستقبل، وأن أسرتهم الكريمة هى الأسرة التى يتشرف بأن يكون بينهم علاقة نسب.

كان كلام هذا الشاب الوسيم بردًا وسلامًا على قلب الأب، الذى طالما عرف أن ابنته تحلم بالزواج من طيار، وها هو الطيار بشحمه ولحمه يتقدم لابنته. ولكن هناك شيء ما لفت نظر الأب، وبادر بسؤال الشاب عنه، وهو أنه لا يوجد مطار أو حتى شركة طيران بالقرب من مسكنهم، وأتبع هذا السؤال بسؤال آخر عن ماهية

شركة الطيران التى يعمل فيها هذا الطيار الوسيم، وهل هى شركة وطنية، أم شركة أجنبية.

فاندهش الشاب من السؤال، وكانت إجابته "شركة طيران ايه يا عمـــى أنـــا باشتغل طيار على موتوسيكل فى محل البيتزا اللى قدامكم" !!!

المحتويات

القصة	رقم الصفحة
١- انتحار مواطن عربى	٩
٢- جواز سفر	١٢
٣- البقاء لله	١٥
٤- رنة محمول	١٨
٥- عم على وحدووه	٢١
٦- الحب الإلكترونى	٢٥
٧- كُشك الحكومة	٢٨
٨- حب فى الجولان	٣٠
٩- عودة من اللاعودة	٣٢
١٠- إنى أحترق	٣٥
١١- ٠٩٠٠.	٣٧
١٢- يوم حرية	٤٠
١٣- الكنز	٤٢
١٤- البلياتشو	٤٥
١٥- أرزاق	٤٧
١٦- سطو مسلح	٥٠
١٧- سكة سفر	٥٣
١٨- ورم خبيث	٥٦
١٩- الزهايمر	٦٠
٢٠- شرود	٦٤

القصة	رقم الصفحة
٢١- رحيل	٦٧
٢٢- ليست مختلفة	٦٩
٢٣- الستر	٧٣
٢٤- لقاء	٧٥
٢٥- نهاية وبداية	٧٨
٢٦- للخيانة وجهان	٨١
٢٧- كابوس	٨٤
٢٨- لا حيلة فى الخلق	٨٥
٢٩- الله	٨٦
٣٠- النتيجة	٨٧
٣١- هنا أشعر بالأمان	٨٨
٣٢- طيار	٩٢

كتب أخرى للمؤلف

اسم الكتاب	دار النشر	سنة النشر
١- Avoiding Mistakes (تأليف)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٠
٢- فن إدارة المبيعات (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠١
٣- صعوبات اللغة والكلام (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٤
٤- دليل تعليم ذوى الاحتياجات الخاصة (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٤
٥- صعوبات التعلم (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٤
٦- الصعوبات السلوكية والانفعالية (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٤
٧- المشكلات الطبية والصحية (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٥
٨- الصعوبات الجسمانية والتنسيقية (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٥
٩- الصعوبات الحسية (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٥
١٠- الصعوبات الناجمة عن التوحد (ترجمة)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٥
١١- مرشد المترجم إلى اللغة العربية (تأليف)	دار النصر للنشر	٢٠٠٥
١٢- قاموس لونجمان المعاصر (ترجمة)	لونجمان	٢٠٠٧
١٣- قواعد الترجمة الأساسية للمترجمين المبتدئين وطلاب الترجمة (تأليف)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٧
١٤- قاموس المصطلحات الدينية (تأليف)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٧
١٥- Aspects of the Translation of the Qur'an (تأليف)	دار هلا للنشر والتوزيع	٢٠٠٧
١٦- قاموس المصطلحات السياسية (تأليف)	دار هلا للنشر والتوزيع	تحت الطبع
١٧- أصول الألفاظ والتعبيرات العامية (تأليف)	دار هلا للنشر والتوزيع	تحت الطبع
١٨- الموسوعة الموجزة الشاملة (تأليف)	دار هلا للنشر والتوزيع	تحت الطبع



هذه المجموعة القصصية
عبارة عن خواطر قصصية
تتناول فكرة البداية والنهاية
في حياة الإنسان؛ لأن لكل شيء
في هذا الكون بداية ونهاية،
وهذه سنة الله في الأرض.

د. خالد توفيق





هلا للنشر والتوزيع
www.halapublishing.net
hala@halapublishing.net